من الشعر العالمي الحديث

ايف بونفوا

الأعمال الشعرية الكاملة

ضد أفلاطون

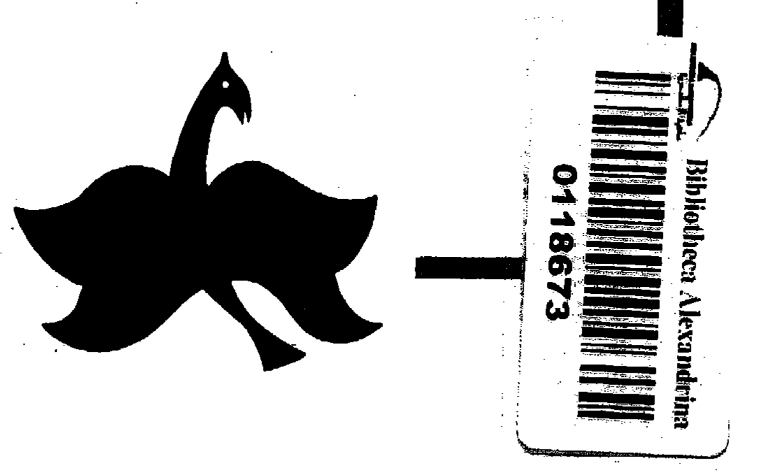
دوف، حركةً وثباتاً

سائدةً أمس الصحراء

حجر مكتوب

في خديعة العتبة

ترجمة: أدونيس



صمم الغلاف : عبد القادر أرناؤوط

الأعمال الشعريّة الكاملة

إيف بونفوا

الأعمال الشعرية الكاملة



ترجمة: أدونيس

منشورات وزارة الثقافة
في الجمهورية العربية السورية
دمشق ١٩٨٦

العنوان الأصلي للكتاب :

YVES BONNEFOY

POEMES

Du mouvement et de l'immobilité
de Douve

Hier régnant désert

Pierre écrite

Dans le leurre du seuil



MERCVRE DE FRANCE
MCMLXXVIII

الأعمال الشعرية الكاملة = Poémes / تأليف
إيف بونفوا ، ترجمة ادونيس .- ط ١ .- دمشق :
وزارة الثقافة ، ١٩٨٦ .- ٣٢٨ ص ؛ ٢٥ سم .

بأوله مقدمة تحليلية لجان ستاروبنسكي .- صورت على أحمد سعيد باسم ادونيس .

١- ٨٤١ ف ب و ن أ ٢- العنوان ٣- بونفوا
٤- سعيد ٥- ستاروبنسكي
مكتبة الاسد

الايداع القانوني : ع - ١٩٨٦/٨/٧٢٣

المقـــدمة

جان ستاروبنسكي
(Jean Starobinski)

« بَدوا كأنّهم سمعوا خبرَ عالَمٍ مُخلّص أو عالمٍ مهدَّم » : تَتصدّر هذه الجملةُ (المأخوذة من الفصل الأخير من « حكاية الشتاء» V، ٢) مجموعة « في خديعة العتَبة » التي تشكّل الجزء الختاميّ من « قصائد » إيف بونّفوا ، في هذا المجلّد .

كانت تتصدّر المجموعة التي سبقتها، (وهي الآن الجزء الثالث من هذا المجلّد) جملةٌ مأخوذة من المسرحيّة ذاتها (III، ٣) : « أنتَ التقيتَ بما يموت ، وأنا التقيتُ بما يُولَد » . هاتان الجملتان المأخوذتان من مسرحيّة يُحبّ بونّفوا جوهرها الأسطوريّ ، وقد نَقَلها إلى الفرنسية نقلاً مدهشاً ، لا تتضمّنان وحسب اختيارَ مُنطلَقٍ في التّراث الشعريّ الغربيّ الكبير ، وإنما هما كذلك صوت الماضي الذي يُعلن الرّهانات الحاضرة ويدلّ عليها ؛ وهما تشيرانِ بدقّةٍ ، كما يُخيّل إليّ ، بطريقةٍ رمزيّة وجذريّة ، إلى المسألة المزدوجة التي تُهيمن على شعر إيف بونفوا . تقول لنا كلمة world (عالم) أنّ العالمَ أو أنّ عالماً في خَطر ، أعني كُلاًّ مترابطاً ، وجملةً من العلاقات الواقعيّة . غيرَ أنّ وجودَ هذا العالم مُعلّقٌ في التّناوُبِ الذي يقابل بين مُخلّص ومهدَّم ، ما يموت ، وما يُولَد . يُشير العملُ الشعريّ في هذا ،

إلى هاجسه الأصليّ ، إلى مكانِ انبجاسه ، الذي هو لحظة الخطر ، حيث يتأرجح كلّ شيء بين الحياة والموت ، بين « الخلاص » و « الهلاك » . تُفْصِح جُملتا شكسبير ، بقوّة التّناقض ذاته ، عن التمزّق والقلق ، لكنهما تُفصحان أيضاً عن توثّب الأمل : الينابيع الوحيدة – خارجَ كلّ يقينٍ مُمتلَك – تلك التي يَكيلُها بونّفوا إلى شعره . هذه ثوابت . وكان في الجُملة المأخوذة من هيجل ، والتي تتصدّر مجموعة « دوف ، حركةً وثباتاً » ، ما يُشير إلى المواجهة بين الحياة والموت . « لكنّ حياة الفكر لا ترتعبُ أبداً أمامَ الموت ، وليست تلك التي تَعْرى منه . إنّها الحياة التي تتحمّلهُ ، وتستمرّ فيه » . مسألة العالم ، بدورها ، كان قد أُشير إليها ، لكن بشكلٍ نقديّ ، في صدر المجموعة الثانية ، بجملةٍ مأخوذةٍ من هيبيريون Hypérion هولدرلن Hölderlin : « تقول ديوتيما : تريد عالماً – لهذا تملكُ كلّ شيءٍ ، ولا تملك شيئاً . » . يرتبط مفهوم « العالم » ، هنا أيضاً ، بتناوبٍ يتأسّسُ في التّعارُضِ الأكبر بين « الكلّ » و « لا شيء » . إن اختيار العبارات التي تتصدّر الكتب ، عند فنّانٍ مأخوذٍ بالوضوح إلى هذه الدّرجة ، بمثابة إعلانٍ عن قَصْدٍ ، يوجّه القراءة والفهم ، ويسمح باستيعاب النصّ الجديد انطلاقاً من أعمال الماضي التي احتفظَ بذكراها ، والتي يشعر بالحاجة إلى أن يقدّم لها جواباً . إنّ « حكايةَ الشتاء » أسطورة عظيمةٌ عن المصالحة . ووراء الجملتين المأخوذتين من هيجل وهولدرلن ، نَتبيّنُ أطروحاتِ الأفلاطونيّة المحدثَة عن الواحد ، وعن التجزّؤ وإعادة الوَحْدة . هذه قضايا يتجدّدُ إلحاحُها بالنّسبة إلى بونّفوا ، بعيداً عن كلّ ضمانٍ يوفّره الفنّ والفكر الماضيان : فالاستشهادات التي تتصدّر المجموعات ، والتي هي كلماتٌ

من الماضي ، تشجّع على التّفكير في وضع اللّغة الرّاهن ، بوصفه لحظةً ينبغي فيها أن تُولَد من جديد العلاقة الإنسانيّة ، بدءاً من حالة شتات . الكلامُ المسْتَشْهَدُ به هو الزّادُ — في بداية رحلةٍ تواجه الأرضَ غيرَ المكتشفة ، والفضاءَ المظلم ، وأماكن التّفرّق .

* * *

لنَسْتَبِقِ الإشارة : العالم في خطر . وينبغي دون شكٍّ التّذكير بأنّ كلمة عالم أخذت ، منذ قرنين ، وبخاصّةٍ في الشعر ، قيمةً لم تكن تملكها سابقاً . كانت تعني أوّلاً ، في دلالاتها القديمة ، مجموعة الأشياء المخلوقة التي يحكمها النظام الطبيعيّ ؛ ثم أخذت ، في دلالتها الدّينية ، تعني الدّنيا في تعارضها مع « العالم الآخر » ؛ وصارت أخيراً تعني ، بنَحْوٍ أكثر حرّيةً ، فضاءً أرضيّاً فسيحاً ، قارّةً « جديدة » ، أو « قديمة » . حين يتحدّث شكسبير عن عالَمٍ « مخلّص » أو « هالك » ، فهو يأخذ الكلمة بمعناها الدّيني ، ويأخذها تالياً ، بالمعنى الأخير الذي أشير إليه هنا ، معنى القارّة . لكننا نعرف أن شكسبير ، كمثل مونتايني Montaigne ، شاهدٌ على أزمة تصوّر الكون . وسرعان ما انتصرت الصّورة الكوبيرنيكيّة عن الشمس المركَز ، والفيزياءُ الرياضية ، والتّجريدُ الحسابيّ ، متزاوجاً مع التّجربة المنتظمة . بُنيت هذه الصّورة الجديدة عن العالم الفيزيائيّ ووُصِفت اعتماداً على رفض المظاهر المحسوسة . كانت شهادة الحواسّ تقدّم كوناً بصفاتٍ جوهريّة ، وها هو يوضع موضعَ الشكّ ، ومن الآن فصاعداً ، ستتجلّى أسرارُ الطّبيعة بوساطة « التفحّص الفكري » ، وحده (ديكارت) . الأجسام السّماويّة ، القوى القابلة للاستخدام على هذه الأرض وفقاً لقوانين متطابقة مع

نظام الأعداد ، وهكذا تتيح إمكانَ التنبّؤ بها والسّيطرة عليها . وإذا كانت شهادة الحواسّ مطلوبةً في العمليّة التّجريبيّة ، فذلك بديلٌ عن تَرْكِ المنطقة الأولى للحياة المحسوسة . إنّ تقدّم الفيزياء الرّياضيّة وامتدادَها في تطوّر التّقنية زادا معاً طمأنينةَ البشر المادّية وغيّرا حيّزَ المعرفة : وَضَعَتا (الفيزياء والتّقنية) قوى الطّبيعة في خدمة البشر (الرغبات الإنسانية في هذه « الحياة الدنيا ») ، لكن توجّب على البَشر ، مقابلَ ذلك ، أن يتخلّوا عن تأمّل الأشياء الطبيعيّة ، الأشياء المفردة – تاركين هكذا بلا وريثٍ ، ذلك المجال حيث يُدرَكُ جميعُ ما يحيط بنا – في لونه ، وموسيقاه ، وثباتهِ المحسوس . وقد أوضح جواشيم ريتر J. Ritter أنّ الاهتمامَ الجماليّ بالطبيعة ، في الغرب على الأقلّ ، وُلد لحظةَ أحسّ بعض الأشخاص بما كانوا يخاطرون بفقدانه في تخلّيهم عن غنى الإدراك العَفْوي (١) . غير أنّه ألحّ أيضاً على واقع أنّ المشهد الطبيعيّ لا يمكن أن يُدركَ بوصفه موضوعَ متْعةٍ لا غاية لها ، إلاّ بدءاً من اللّحظة التي أتاحت فيها التّقنياتالعلمية للبشر ، أن يُحسّوا بأنّهم أقلّ عرضةً لتهديد الطبيعة ، وأقلّ عبوديّةً لوظائف استمرار البقاء . هكذا استقبلَ الفنّ والشعر هذا المجالَ الذي هجره العقل الحسابي ، وجرّده من مزاياهُ العلمُ الذي يبني منظوماتٍ من العلاقات الجبريّة : صارت مهمّة الفن مُذّاكَ أن يَعْمُرَهُ ، أن يُطْلِقَ ما فيه من طاقات السّعادة الكامنة ، بل أن يُلاحق فيه نوعاً من المعرفة تتأسّسُ على براهينَ أخرى ، وتستند على شرعيّةٍ أخرى .

(1) Joachim Ritter, Subjektivität, Franckfort, 1974, p. 141-190.
وقد ظهرت دراسته حول الطبيعة بالفرنسية في مجلة « آرجيل » (Argile) ، العدد ١٦ ، باريس ، صيف ١٩٧٨ ، ترجمة جيرار روليه G. Raulet .

إنّ المعرفة العلميّة « تنمو في منظومات معزولة » (أستشهد بباشلار Bachelard) ولا تظلّ علميّة إلاّ بقدْر ما تعترف أنّها تابعةٌ لاختيار ثوابتها ؛ تستعيد ، بالمقابل ، الفاعليّةُ الجماليّة الوظيفةَ القديمةَ لتأمّل العالم بوصفه كُلاً ومعْنى . وإذ يأخذ الشعر على عاتقه عالمَ الظّواهر ، لا ينْحدُّ في تلقّي تراث العالم المحسوس الذي يتنكّب عنه الفكر العلميّ . لقد أدّى انتصار الفيزياء والكوسمولوجية الرّياضيّة إلى غياب التصوّرات الدّينية المرتبطة بصورة الكون القديمة : لم يعد ، فيما وراء المدارات الكوكبيّة ، عالَمٌ سماويّ يقيم فيه الله أو الملائكة . لا شيء في الكون يختلف عن الحيـــاة الدّنيـــا : العالم الدنيويّ هو الوحيد الذي تُطبّق فيه العقلانيّة العلميّة . أمّا العالم المقدّس فيختبىء في التّجربة « الداخليّة » ، إن لم يكن عليه أن يختفي ، ويرتبط بفعل الحياة ، والتّواصُل ، والحبّ المشترك — متّخذاً هكذا من المحسوس ، واللّغة ، والفنّ ، مُقاماً له .

ذلك هو ، كما يُخيّل إليّ ، الوضع التّناقضيّ الذي يعيشه الشعر منذ حوالَى قرْنين : وَضْعٍ هشّ لأنّه لا يملك منظومةً من البراهين التي تؤكّد سلطة المقالة العلميّة ، لكنه في الوقت نفسه وضعٌ امتيازيّ حيث يقوم الشعر عن وعيٍ بوظيفةٍ أونطولوجيّة — هي ، في آنٍ ، تجربةٌ في الوجودِ وتأمّلٌ فيه — والتي لم يكن يحمل عبْئَها ولا همّها في العصور السّابقة . إنّ للشعر عالماً ضائعاً وراءه ، نظاماً كان مُتضمّناً فيه ، وهو يعرف أنه نظامٌ لا يقدر أن يحيا من جديد . إنه يحتضن في ذاته الأملَ بنظامٍ جديد ، بمعنىً جديد ، عليه أن يتخيّلَ تأسيسَه . وهو يُحرّك كلّ شيءٍ من أجل أن يُعجّل مجيء العالم الذي لم يُعبَّرْ عنه بعد ، والذي هو جملة العلاقات الحيّة التي نحْظَى فيها بغبطةٍ

حضورٍ جديد . هكذا إذ يأخذ الشعر العالمَ على عاتقه ، يفكّر فيه بوصفه مستقبلاً ، كأنّه مكافأةٌ للعمل الشعريّ . ويُلاحظ رامبو — أحد أكثر الذين شاركوا بقوّةٍ في فَرْضِ هذا المعنى الجديد لكلمة عالم ، « أنّنا لسنا في العالم » ، ويَبْتهل : « أيّها العالم ! أيّها النّشيد الصّافي للعذابات الجديدة (٢) » . هذه فسحة مشابهة لتلك التي يتّجه نحوها ، في الانتظار الأكثر محسوسيّةً ، فكر ريلكه (Rilke) .

عن هذه الدّعْوةِ الحديثة للشعر ، نرى في نتاج بونفوا أحدَ النّماذج الأكثر التزاماً والأكثر تبصُّراً . إنّ لكتاباته ، شاعراً وباحثاً ، ذات النبرة الشّخصية البارزة ، والتي تتجلّى فيها ، ببساطةٍ وقوّةٍ ، إنّيّةُ الطّرْح الذّاتيّ ، موضوعاً هو العلاقة مع العالم ، لا التأمّل الداخليّ للذات (٣) . فهذا النّتاجُ هو أحد النتاجاتِ الأقلّ نَرْجسيّةً . إنّه متّجهٌ بكلّيته نحو الشيء الخارجيّ الذي يهمّه ، وتتضمّن فرادتُه ، وخاصيّتهُ الفذّة إمكان المشاركة دائماً . هكذا ليس الطّرحُ الذاتيّ إلاّ الطّرفَ الأوّل من علاقةٍ شكلُها المتطوّر هو الاستفهام : الأنتَ الذي يتوجّه إلى الغير (إلى الواقع خارجَ الأنا) ، لكن أيضاً الأنت الذي يخطّ فيه الشاعر نداءً موجّهاً إليه هُما في الأقلّ مُلحّان كمثل أنا التوكيد الشّخصيّ . يمكن القول إنّ همّ العالم يُبقي الذّات في يقظةٍ ، وإنّها مسؤولةٌ عنه عبرَ استعمالها اللّغة . يقول لنا بونفوا ، مُستعيناً

---

(٢) انظر شرح قصيدة Génie (عبقرية) ، الذي يقترحه إيف بونفوا في كتابه : رامبو ، باريس ١٩٦١ ، ص ١٤٧ — ١٤٨ .

(٣) انظر : جون جاكسون : مسألة الذات — مظهر للحداثة الشعرية الأوروبية : إليوت ، بول سيلان ، إيف بونفوا ؛ نيوشاتل ، لاباكونيير ، ١٩٧٨ .
(John E. Jackson, La question du sujet, un aspect de la modernité poétique européenne, Eliot, P. Colin, Y., Bonnefoy, Neuchâtel, La Baconnière, 1978.

بالمعجم الأخلاقي ، إنّ الرّهان خيرٌ مُشترَك ـ خيرٌ يجب أن يتحقّق بالضّرورة ويُختَبَر في التّجربة الفرديّة لكن ليس لمصلحة الفرد المنعزل ، وحدَها . الذّاتُ ، أو الأنا الحاضرةُ بقوّةٍ في فعْل النُّطْقِ ، لا تَبقى وحيدةً على المسرح في مَنْطوقِها : تفسح برحابةٍ مكاناً للآخر ، لمن يلتمس الحنوّ ، وتقبل أن يخضعَ الوعي الفرديّ ، في مواجهة العالم، إلى إلزام حقيقةٍ ليس له الحقّ أن يتصرّف بها اعتباطياً . إنّ أنَويّةَ (solipsisme) كثيرٍ مِن « المقالاتِ الشعريّة » في العصر الحديث هي ما يرفضه بونّفوا بأعلى درجةٍ من القوّة . فالعالم هو ما ينبغي أن « يُخلّص » لا الأنا ، أو بتعبير أدقّ : لا يمكن أن « يُخلّص » الأنا ، إلا إذا خُلِّص معه العالم . وعبارة الاستشهاد المختارة هي ، في هذه النقطة أيضاً ، بالغةُ الدّلالة .

* * *

مارَس بونّفوا ، فترةً من شبابه ، الرّياضيات وتاريخ العلوم والمنطق ، لهذا يعرفُ بالخبرة جاذبيّةَ الفكر التجريديّ والفرحَ الذي يمكن أن يعيشه الفكر في بناء صَرْح المفهومات والعلاقات المحضة . لكنه كمثل باشلار ، وقد اقتدى بإرْشاده العلميّ ، يُدرك أنّ دقّة المعرفة تقتضي التّضحيةَ بالبداهات المباشرة والصّور الأوّلية ، وأنّه لايقدر أن يكتفي بذلك . وقد أخذ باشلار ،هو أيضاً ، بعد أن مَجّدَ الانقطاعَ للعلم ، بما كان قد رفضه : القناعات الحالمة ، التّصور الذي تضفيه الرّغبة على الفضاء ، الفضائل الخياليّة التي ننسبها للمادّة . وخلافاً لباشلار ، لا يُحسّ بونّفوا بالحاجة إلى بُعْدٍ خياليّ لكي يحافظَ على النّار الضروريّة للحياة ، بل يُحسّ بالحاجة إلى واقعٍ بسيط ، مليءٍ يحمل معنى ـ إلى أرضٍ ، كما يقول بإلحاح . ليس لِأنّ الخياليّ

أو الحلم لم يمارس إغواءً مستمراً على فكر بونفوا ، مما تؤكده السنوات التي تعاطف فيها مع السوريالية . وإنما اختبر في وقتٍ مبكرٍ أنّ ما يتجلّى في « العجب » السوريالي ليس « دخيلاء التجربةِ المحسوسة ، بغناها الذي لا يدركه العقلُ العاديّ ، بل هو الحضور الخاطىء ، ذلك الذي بفعله يغيبُ الموجودُ وينغلق على قراءتنا ، لحظةَ يتراءى لعيوننا » (٤) . حين نقرأ هذا النصّ الذي يشرح فيه بونفوا قطيعته مع السورياليين ، نرى بوضوحٍ ما كان ينبغي ، في نظره أن يُقدَّم على الصّورة ، حيث تتلألأ « فكرة ضوءٍ آخر » : إنه « الواقع » (« الأوْفر مما وراء الواقع ») ، « الأشياء البسيطة » ، « شكل مكاننا » ، وباختصار ، « العالم » :

« (. . .) لا حضورٌ حقيقيّ إلاّ إذا قدر التعاطف ، الذي هو المعرفةُ في فعلها ، أن يمرّ كمثل الخيط لا عبر بعض المظاهر التي تُفسح مجالاً للأحلام ، وحسب ، وإنما أيضاً عبر جميع أبعاد الشّيء والعالم ، فيضطلع بهما ويردّهما إلى وحدةٍ أشعر من جهتي أنها تضمن لنا الأرض في بداهتها ، الأرض التي هي الحياة » . (٥)

إنّ مأخذ بونفوا على السوريالية ، المتناظر مع مأخذه على العلم والمقابل له ، هو أنّها تخلّت عن المكان ، العالم الذي ننتمي إليه ، باسم نظامٍ آخر للواقع ، لا يتجلّى إلاّ بطريقةٍ عابرة ، في أشخاصٍ متميّزين ، وفي لحظاتٍ امتيازيّة ؛ فالهالة التي يكتسبها فجأةً كائنٌ ما أو شيءٌ ما ، بحسب التّجربة السوريالية — تأثيرٌ من شأنه أن يُقنعنا

---

(٤) حوار مع جون جاكسون ، مجلة « آرك » (L'Arc) ، ١٩٧٦ ، عدد ٦٦ ، صفحة ٨٥ — ٩٢ .

(٥) المصدر ذاته ، ص ٩٠ .

بأنّ « جزءاً من واقعنا ، أو من هذا الشيء ، يحمل (. . .) في ذاته آثارَ واقعٍ أعلى ، ممّا يُقلّل شأنَ الأشياء الأخرى في العالم ، بشكلٍ غير مباشر ، ويولد الشّعورَ بأنّ الأرض سجن . . . » (٦) . هذه ، بالنسبة إلى بونّفوا ، علامةُ موقفٍ غنوصيّ : موقفٍ يدعو ، لكي يسوّغ رفضَه مظاهرَ العالم ، إلى مفهوم الوحدة الضّائعة ، مفهوم السّقوط ، والبحث الضروريّ عن الخلاص في حيّزٍ آخرَ من الواقع . هكذا يُحسّ بونّفوا إحساساً حادّاً بضرورة حضورِ العالم ، والحضور في العالم ، ويرى أنّ علينا أن نتمسّك بهما ، في وجه جميع الدّعوات التي تجذب فكرنا نحو ممالك منفصلة . إنّ السّورياليّةَ ، إذ تستسلمُ لجاذبيّة التّنجيم ونزْعةِ الإيمان بالقوى الخفيّة (التي تهيمن أصولها على كتابات أندريه بروتون ، بعد الحرب) ، إنّما تطرح تنويعاً ممّا قبل العلم ، « سحريّاً » ، على مقالة العلم الحتْميّ ذاتها : لم يكن بحثه عن السرّ أقلّ إبعاداً له عن المباشر ، « البسيط » ، الوجود المحسوس ، ولم يكن ، بفعل ذلك ، أقلّ فصْلاً من قانون المفهومات والأعداد .

لنلاحظ هنا أنّ العالم الذي يحاول بونّفوا أن يؤكّد انبثاقه ، لا يأخذ معناه كلّه إلاّ من التّعارض الذي يستند إليه : إنه العالم المستعادُ من التّجريد ، العالم المحرَّرُ من مياه الحلم القاتمة ؛ وهذا يقتضي جهداً ، وعملاً ، وسفراً . فالعالم ، حتى إذا توجّب علينا أخيراً أن نعترفَ بأنّه سبق أنْ كان هُنا ، هو أوّلاً غائب ، محجّبٌ وينبغي أن ننْضمّ إليه ، بالنّظر والكلام ، بدءاً من حالة انفصالٍ وحرمان . وتسير نصوص بونّفوا كلّها — الشعر ، النثر ، الأبحاث — في سياقٍ من

---

(٦) المصدر السابق ذاته ، ص ٨٩ .

اللّحظات ، الشّبيهة بلحظات العبور ، حيث تسهر رغبة مشتركة بين الذكرى والأمل ، بين البرودة المعتمة وحرارة نارٍ جديدة ، بين الكشف عن « الخديعة » والاتّجاه نحو الهدف . إنّها نصوصٌ تَقِفُ بين عالمين (في التاريخ الفردي ، كما في التاريخ الجمعي) : وُجِد عالَمٌ ، وكمالمَعْنى ، لكنّهما ضُيِّعا حُطِّما ، بُدِّدا . (هذا هو التوكيد الذي تبدأ به العقائد الغنوصيّة — ومشاركة بونّفوا إيّاها في هذه النّقطة تجعله شديد الانتباه لكي ينفصلَ عنها في المراحل اللاّحقة) . سيوجَدُ مِن جديدٍ عالَمٌ ، مكانٌ صالِحٌ للاقامة ، لكلّ مَن لا يستسلم لِلأوهام ولا لليأس ؛ وليس هذا المكان في « الما وراء » ولا في « الهنالك » ؛ إنه « هنا » — في المكان ذاته ، نَحْظَى به ، في ضوءٍ جديد ، بوصفه شاطئاً جديداً . لكنّ الشاطىء الجديد ليس هو نفسه إلاّ مُسْتَشْعَراً ، مُسْتَشْرَفاً ، يبتكره الأمل . حتّى أنّ هذه الفسحة بين عالمين ، يُمكن أن تُعَدّ كمثل حَقْلٍ ينمو فيه كلام بونّفوا — حَقْل يَنْفتح بالضرورة على صُور السَّيْر والسّفر ، يَسْتدعي السَّرْدَ أحياناً في هذه « المغامرات » التي تتدخّل في قَصَص البحث : تَيهانات ، شِباك ، طرق خاطئة ، مداخل حدائق أو مرافىء . الواقع أنّ هذا الارتسام في الفسحة ليس إلاّ صورةً ، إمكانيّةً رمزيّة ، يعرف بونّفوا أنّ عليه أن يقاومَها . بين عالمين : المسافة جوهريّاً مسافَةُ حياةٍ وفكر ، تتكوّن من تغيّر العلاقة بالأشياء والكائنات ومن نموّ التّجربة في اللّغة .

إنّ تشدّدَ بونّفوا الأقصى ، في ما يَتّصل بصحّة العالم الثاني الذي يتمنّى بلوغَه ، يحدّد سلسلةً من التّحذيرات أو مِن الدَّفْعِ بِعدَمِ القبول ، بخصوص من يُخاطر بالحَيدان عنه أو يقومُ مَقامه

بيسْرٍ كبير . بل يجب القول إنه بسببٍ من ارتسامه ذاته في المستقبل ، أمامَ النقطة التي انطلقَ منها بحثنا ، يتحدّد العالم الثاني برفض العوالم الوهميّة أو الجزئية التي تعرض نفسَها بديلاً له ، أقلّ مما يَتحدّد بعزّيته الخاصّة (التي لا تقدر أن تتجلّى إلاّ بمجيئه ذاته) .

إنّ بُعدَ المستقبل والأمَل بُعدٌ رئيس . ومهما يكن الإحساسُ بعالمٍ ضائعٍ حادّاً ، فإنّ بونّفوا لا يترك لِلنّظر الاستعاديّ أو الفكر الحَنينيّ أن يَنتْصر . أكيدٌ أنّه يُشير ، مِراراً ، إلى التّحالف المقدّس مع الأرض، في ماضي الثّقافات الإنسانيّة،والتي شهدت له الميتولوجيّات : لكنّ الكلام الميتولوجيّ الذي نضَب الآن لا يقدر أن يُولد من جديدٍ شبيهاً بما كان . إنه يشير وحسب إلى إمكانيّة « امتلاءٍ » كان الوجود الإنسانيّ قادراً عليه في عالم سابقٍ على القطيعة التي فصلت بين لغة العلم (المفهوم) ولغة الشعر . ويُختَصّ الشعر ، من الآن فصاعداً ، أو تُختْصّ على الأقلّ ممارسةٌ جديدةللكلام في ابتكار علاقةٍ جديدةمع العالم — علاقةٍ لن تكون تكراراً للتحالف القديم مهما كانت مثقلةً بالذّكرى . فإذا كنّا نرى عند بونّفوا ضوءَ الوحدة الماضية يلمع خِفْيةً ، فليس لكي يفسح مكاناً للحلم المرمِّم (أو النّاكص) الذي يتصالح مع صورة عودةٍ ما : إنه يقتصر على أن يعكس بقوّةٍ ، لكن دون لَجاجةٍ ، حميميّةً أولى مع البراءة الطبيعيّة . ذلك أنّ القَطيعة أو « السّقطة » هما ، بالنسبة إليه ، من البداهة بحيث لا يحتاج إلى أن ينخرطَ في نشاطٍ ترميميّ محض : هواجسُ العصر الذهبيّ وغنائيّةُ الحبّ البريء غريبةٌ عنه . لا يمكن أن يتخيّل « تحديداً للحسرة » كهذا إلاّ من يريد أن يقتصدَ في المجابهات الصّعبة ويقتنع بِـ « صورةٍ » يُحلُّها محلّ « الواقع » المفقود . لاماضويّةَ إذن ، غيرَ أنّ ماضياً ما ، يصعب

تعيينهُ ، يظهر متميّزاً بالنسبة إلى وضعنا الحاضر . لم يعد العالم الأوّل صالحاً لأن يكون لنا ملجأً . ولئن حدث أن استخدمَ بونّفوا في دراساته كلمات ، أفعالاً على الأخصّ ، تتميّز بالسّابقة التي تدلّ على التكرار — « أحيا مجدّداً الكلام » (ranimer) أو « مَرْكَزَه من جديد » (Recentrer) ؛ « جدّدَ أرضاً » (recommencer) ؛ « استعادَ الحضور » (retrouver) — فَلْنعلَمْ أنّ هذا ليس إطلاقاً لكي يدعو للعودة إلى كمال قديم ، ولكي يسندَ إليه سلطةً لا يمكن تجاوُزها : وإنما لكي يُحدّدَ العالم الثاني ، بوصفه مكانَ حياةٍ جديدة ، وكمالٍ آخر ، ووحدةٍ مغايرة ، ممّا يُعوّض عن فقدان العالم الأوّل . وليس بونّفوا ، في توكيده على المسافة التي تفصله عن المسيحيّة وعن هيجل ، بأقلّ منهما تعلّقاً بشكلٍ من أشكال التّجاوز ، بالخطوة إلى الأمام ، أملاً بالعثور في النّهاية ، داخلَ حقيقةٍ مبسّطةٍ وممتلكةٍ بشكلٍ وثيق ، بفضل عمل التّوسّط (الذي هو معاناةٌ وموت) ، على ما كان مضيّعاً في البداية أو مهجوراً . أكيدٌ أنّ النّظرَ إلى الوراء ليس مُنكَراً : الأعمال الأدبية ، اللّغات ، الأساطيرُ تدعو إلى التأمّل والإصغاء ، لكن من أجل تغذية الأمل ومن أجل توجيه الفكر نحو ما لا يزال مجهولاً .

أن نَكِلَ المهمّةَ إلى اللّغة ، إلى الشعر ، هو ، بالنسبة إلى بونّفوا ، أن نُقرّر مبدئيّاً أنّ لِلعالم الثاني أساسَهُ في فعل الكلام الذي يُسمّي الأشياء ويَرجع إلى « الوجود » في التّواصل الحيّ مع الآخر (قريبنا) . يحدّد بونّفوا هذه المهمّة في نصوصه حول الفنّ والشعر ، بطريق النّفي أساسيّاً ، كاشفاً عن الخطر المرتبط بممارسة اللّغة حين تختار بغَطْرَسةٍ كمالها المستقلّ الخاصّ ، منفصمةً عن العالم ، وبخاصّة عن الآخر . وهذا ما أشار إليه غالباً هو نفسه ، واهتمّ به شرّاحُه ، بدءاً من

موريس بلانشو (M. Blanchot) ، اهتماماً يكفي لكي نطوّرَ من جديدٍ جميع الأدلّة التي يسلّح بها بونفوا تحذيراته ضدّ الإغراءات التي يمكن أن تَحيدَ بالبحث عن « المكان الحقيقيّ » والتي قد « تأسرنا في شباكها » (عبارة تفصح تماماً عن التّجميد الشقيّ) داخلَ كونٍ منفصل : ليس هذا التّحذير نظريّةً وحسب ؛ ليس قسماً من عقيدةٍ جماليّةٍ أو معاديةٍ للجماليّ — تقول بنوعٍ من « موت الفنّ » بوصفه شرطاً لبلوغ العالم الثاني ؛ فحين نقرأ كتابه « البلاد الداخليّة » ، الذي يشهد على مسيرته الشخصيّة ، نلاحظ أنّ الأمرَ يتعلّق بخَطرٍ عاناه داخليّاً — في الإغواء الغنوصيّ بـ « الماوراء »، في الحمىّ التي يثيرها النّداء « هنالك » ، من « عالم حقيقيّ » لكنّه ليس المكانَ الحقيقيّ إلاّ وَهميّاً ، ذلك أنّه يَقتضي التخلّيَ عن الهُنا ، عن الواقع الذي يرى فيه الشاعر نفسَه خارجَ محوره ، وَمنفيّاً . الفَصلُ خطيئة : وهي الخطيئة التي يرتكبها « نَظّامو الكلمات » (٧) ، حين يهجرون « الواقعيّ » (أو الوجود) من أجل المفهومات ؛ حين يَنحرف الحلم نحو البعيد ؛ حين تتفوّق الصّورة ، في مجدها ، على حضور الأشياء البسيط ؛ حين ينعزل الكتاب أو العمل في كمالهما المُغلَق، على حدة ، في نَقاء بنيتهما « التّجريديّ » . إنّ في اللّغة قدرةً قاتلةً — حين تطرد الواقع حاجبةً إيّاه ، واضعةً مكانه الصّورة ، الانعكاسَ غيرَ الجوهريّ . يجب آنذاك أن تُرَدَّ إلى الصّمت . لكن لا يقدر شيءٌ أن يحولَ دون أن تكونَ اللّغة أيضاً حاملةً « أملَنا بالحضور » . يكمن في الكتابة إذن

---

(٧) « الشاعر قوال كلمات » ، يقول بيار جان جوف في « قبر بودلير » . تستبعد دراسة بونفوا عن جوف (في كتابه : « الغيمة الحمراء » Le nuage rouge فكرة الخلاص بالشعر .

الخطَرُ الذي يقررّ « العالمَ الميت » أو « العالمَ المخلّص » . ولئن كان خطرٌ في مكانٍ ما يهدّد «الوجود » ، فإن بونّفوا لا يدّعي أنّه في مَنْجى منه ، ولا يشكو مجرّد أذىً يكون غريباً عنه : العصر ، المجتمع ، الإيديولوجيّات الخادعة . يقبل أن يراه في الإشارات التي ترسمها يَدهُ ، في الأشياء التي يَسْتوقف جمالُها نظره ، في الطّريق الخاطئة « الغنوصيّة» حيث يُخاطر حلمه الخاصّ بالخلاص ، في أن يَتيه . هناك إذن ، بالنسبة إلى بونّفوا ، لا انفصالٌ أوّل وحسب (يتحمّل فيه « المفهوم » كما رأينا ، نصيبه من المسؤولية) ، وإنما هناك ، أيضاً ، خسارة مضاعَفة ، حين يُبحث عن الخلاص في « عالَمٍ — صورة » ، عبر ما يسمّيه بونّفوا ، مرّةً ثانيةً كذلك ، بـ « المفهوم » ، لكن من أجل الدّلالة حينذاك على الكلمات المطهرة ، الماهيّات اللّفظيّة ، الأشكال المَحلومة . العالم — الصّورة نتاجُ خطيئةٍ متفاقمة حتّى حين ينبغي علينا ، في مَصْدرِها ، أن نعترف بأمل وحدةٍ حقيقيّ ، بالحركة التي تريد الكمال : لكن الحركة تجمّدت في « قناع » وأقامتِ العقبة التي ستَتوسّطُ بين رغبتنا وغائيّتها ، — الحضور الحقيقيّ . أكيدٌ أنّ العالم — الصّورة ، العالمَ — القناعَ نَفْيٌ للعالم المُفْقَر و « المُشَتّت » حيث نعيش في حالة انتظار ؛ لكنّ هذه الكلمات ، هذه الماهيّات ، التي وُلدت من التّضحية بالمباشر ، من قَتْل المُعطَى الأوّل للوجود ، لا تَلد العالم الثاني ولا تُحييه : إنّها تتلألأ ببريق الموت . إنّ التّشدّد الذي ينطق بونّفوا باسمه (التشدّد الأخلاقي أو بالأحرى الأونطولوجي الأكثر مما هو جماليّ) يقتضي نفياً ثانياً ، موتاً ثانياً ، نفياً لـلنّفي : نفياً « وجوديّاً » لـلنّفي « الفكريّ » الذي أنْتَج العمل : فَلْيُكسَرْ ، ولْيُتْلَفْ ، ولْيُشْتَمْ ، وليُحطّمْ الشّكلُ المغلق الذي ينعزل فيه

« الجمالُ » ، النّظام (العالم اللّفظي) الذي تَنحبسُ فيه اللّغة أو العمل الأدبي بوصفه لغةً : ولْيُولَدْ من هذا الموتِ المَعْبورِ الكلامُ ، فعلُ التّواصُل ، الحيّ . لنُضِف حالاً حول هذه النّقطة ملاحظةً : بما أنّ الأجهزةَ المفهوميّة في غَطْرستها التوسّعية ، في إشعاعها « البارد » وفي طاقتها الحَجْبيّة أيضاً تأخذ شكلَ العالم ، فإنّ هذه الكلمة نفسَها تُعطي ، غالباً ، مكانَها لأخريات حين يتعلّق الأمرُ بالإشارة إلى ما سمّيناه بـ « العالم الثاني » : يتحدّث بونّفوا ، بسرورٍ أكبر ، عن أرض ثانية (عنوان دراسة في كتابه « الغيمة الحمراء ») ، أو عن بلاد ؛ يتحدّث أيضاً عن مكانٍ حقيقيّ . ذلك أنّ كلمة عالمَ ، المثقلة بالذكريات القديمة ، حيث تُسنَدُ إلى الكون خاصيّة التآلف الثابتة ، لا تقولُ المحدوديّةَ ، كما ينبغي ، الشّرْطَ المميت ، الزّمنَ المعطى في لحظاتٍ عابرة ، والتي هي نصيبُ الحياة الأرضيّة ويُطلَبُ منّا أن نمتثلَ لها . ونرى بونّفوا يلجأ بانتظامٍ إلى كلمة عالمَ لكي يرفضَ العوالمَ المعقولة ، اللغات ، المنطوية على كمالها الباطل .

(. . .)

الأرضُ ، المكان ، البسيط : هذه لا تحتاج إذن إلى أن تعرضَ أمامَنا عالماً بكامله : تكفي بضع كلماتٍ ضروريّة تُعلن العالمَ سبّاقةً ، وتقدّم له برهانَ حقيقيّته . لا تتَضَامّ « الأرض الثانية » في فيض الأنواع المحسوسة ، في اللاّ نهاية الباطلة لتعداد الأشياء (إلاّ إذا كانت كلّ كلمة ، وفقاً لإحدى مميّزات سان ـ جون بيرس الذي يعجب به إيف بونّفوا ، مثقلةً بذكرى الواقع ، قادرةً على إيقاظ الألوهاتِ الآنيّة التي التقينا بها سابقاً في الطّفولة ، في قلب العالم الطبيعيّ) . فلا يأخذه حدسه الأساسُ صوبَ البَذْخ الكلاميّ ، المدّ المعجميّ

الضّخم ، تعدّديّة الإدراكات ، — حتّى وإن نسب إلى اللّغة المجدّدة قوّة هيجان الموجة («المدّ هو الذي يثير» ، « الموجة بلا حذر ولا حدّ ») . السّفينة التي يبنيها ليست سفينة الاستيعاب الكلّي . لا ينبغي أن ينبعث في الشعر إلاّ الكلمات التي اجتازت ، من أجل وعي الشاعر ، تجربة المعنى ، التي اقتُلعت من البرودة والعطالة لكي تتّحد برباط حيّ . ليست كثرة الأشياء المشار إليها ، بالنسبة إلى بونفوا ، هي المهمّة ، بل المهمّ نوعيّة العلاقة التي تضع هذه الأشياء في حضور متبادل — علاقة تبدو كأنّها نحويّة ، إن كان النّحو لا يُستنفد في النّظام الذي يؤسّسه : المسألة ، كما يأمل بونفوا ، حركة تؤسّس (أو ترمّم) نظاماً ، تعبرُ وتفتح — استعارة الانفتاح من حيث هو قابلٌ لكي يؤالف بين الأمانة (استعادة العالم ، أو على الأقلّ ، استذكاره) والوظيفية التدشينيّة الآيلة إلى الكلام (البدء بالحياة وفقاً للمعنى) . المشروع الذي عبّر عنه بونفوا مراراً هو « جلاءُ » بضع من الكلمات « التي تساعد على الحياة » . إنها أمنية محدودة ظاهريّاً ، غير أنّها تأخذ دفعة آسرة في صورة الفجر (« هذا البريق الذي يظهر في الشرّق ، في اللّيل الأشدّ كثافة») أو النّار التي تُولد وتتحوّل إلى جمر . فالمهمّة المعطاةُ للشعر تقومُ في جعل « بضع كلمات كبيرة أُحبيت ، تعيشُ مجتمعة ، وتنفتح لإشعاع بلا نهاية (٨) » . اللاّ نهاية هي في الإشعاع ، لا في تعدّدية الكلمات . أو كما يقول نصّ أقرب عهداً :

« ألاَ لا « نُلغينّ » بعد الآن ، المصادفة ، كما تتيحها الكلمات ، بل لنقبلها على العكس ، وحضور الآخر ، الذي نضحّي اللاّ نهائيّ من

---

(٨) اللا محتمل L'improbable ، ١٩٨٠ ، ص ٢٦٦ .

أجله وحضورنا لذاتنا لاحقاً ، سيفتحان لنا إمكاناً .الأحداثُ التي تؤكّد المصير ، دالّةً ستنفصل عن حقل المظاهر الخرساء . بعض الكلمات ، كلمات المشاركة ، كلمات المعنى — الخبز والخمر ، البيت ، وحتّى العاصفة أو الحجر — ستَفلت كما يبدو ، من نسيج المفهومات . وسَينشأ مكانٌ مِن هذه الصّعودات وهذه الرّموز ، سيكون شكلنا الإنسانيّ المكتمل . وإذن الوحدةَ الفعليّة ، ومجيء الوجود في مطلقه . التجسّد ، ظاهرُ الحلم هذا ، إنما هو خيرٌ قريب (٩)».

هناك نصوصٌ أخرى موجّهة كما يبدو ، تُدخل تأمّلاتٍ تهدف إلى تلطيف مظهر رجعة المسيح أو الطوباويّة التي يتعذّر مع ذلك فصلها ، عن مجيء «الأرض الثانية» . إنّها ، على الأقلّ ، تلحّ على فكرة أنّ الوصول إلى الطوباويّة لم يتمّ أبداً بشكلٍ نهائيّ . وهي تؤكّد المسؤولية المركزيّة للأنا (المرقّاة غالباً إلى الجمع : نحن) التي تظهر سلطتها اللّغوية :

« إذا انقطعنا للكلمات التي تقول البيت ، الشجرة ، الطريق ، التّيه ، العودة ، كلاّ ، لن يكون هنالك بالضرورة خلاص ؛ يمكن حتّى في عالم مقدّس ، أن تولد روح التملّك، صانعةً من الحضور مرّةً «ثانيةً» موضوعاً ، ومن المعرفة الحيّة علماً فقيراً : لكن من يريد بقدر على الأقلّ أن يعمل بلا تناقض داخليّ على جمع ما يفرّقه البخل ، ويتكوّن آنذاك من جديدٍ هذا الحضور الثاني حيث تتحوّل الأرض إلى كلام ، وحيث يهدأ القلبُ لأنه يقدر أخيراً أن يصغي إليها ويمزج صوته بأصواتٍ

---

(٩) الغيمة الحمراء ، ص ٢٧٨ ، ٢٧٩ .

أخرى . إنّ عالمَ هذه الكلمات لا بِنْية له في الواقع إلاّ عبرنا ، نحن الذين بنيناه من الصّلصال والرّمل اللّذين أخذناهما من الخارج (١٠) » .

لا تحتاج بداهة هذا اليقين الذي تحمله كتابةٌ هي في آنٍ متأججّةٌ ومتأنّية ، إلى أن تُؤكّد بشهادات خارجية . لا أقدر مع ذلك أن أمتنعَ عن أن أذكر هنا ما قرأته عند واحدٍ من أفضل الفلاسفة في هذا العصر . ينظّم إريك ويل Eric Weil في نهاية كتابه « منطق الفلسفة » الذي هو امتدادٌ للفكر الهيجليّ وإعادة تفسير ، مقولةَ المعنى ويلحّ على الحضور : « الشّعر خلاّق معنىً محسوس . حيث لا يكون هذا الخلق (الذي قد لا يقدر أن يكون ، في بعض لحظات التاريخ ، إلاّ خلقاً ضدّ معنىً قائم ، خلقاً هداماً) لا يكون شعر ؛ وهو يُوجد حيث يظهر معنى ، أيّاً كان « الشكل » . (. . .) ليس الشعر ، في هذا القبول الأكثر اتّساعاً أو الأكثر عمقاً (. . .) مقصوراً على أشخاصٍ مؤهّلين وذوي مواهب : إنه الإنسان نفسه (. . .) الشعر هو الحضور (. . .) إنه الوحدة المباشرة ، ولا يعرف الشاعر (. . .) إن كان تكلّم على نفسه أو على العالم . » (١١)

ما يقوله هنا مفكّر مأخوذٌ بالدّقة المفهوميّة يتخطّ ويتحدّد نهائيّاً ، في صيغةٍ حاسمة . والحالُ أنّ ما يميّز مقاربةَ بونّفوا ، في قصْد متقارب ، هو تعدّدية الأشكال والصّيَغ الاستعاريّة التي يعكس عبرَها المجيءَ الممكنَ للحضور والوحدة . نقدر ، استناداً إلى أبحاث بونّفوا ونصوصه النّثريّة وحدها ، أن نذكر أيضاً عشرات العبارات

---

(١٠) الغيمة الحمراء ، ص ٣٤٢ – ٣٤٣ .

(١١) إريك ويل ، منطق الفلسفة ، باريس ١٩٥٠ ، ص ٤٢١ – ٤٢٢ .

الّتي تشبه تلك التي أوردناها ، جزئيّاً . أكيدٌ أنّ في هذه النّصوص كلمات متماثلة وفيها الاستخدام عينه لصيغة الأمل الشَرْطيّة ، لكن إيقاعَها ونظامَ صورها يتجدّدان دائماً ، لكي يقولاَ باستمرارٍ التحوّلَ ذاته الذي هو إضاءة الواقع ، منذ أن يُستبعدَ كلّ شكلٍ مفهوميّ : يكرّر بونّفوا الوعدَ بهذا المجيء ، منوّعاً إيّاه باستمرار ، كما لو أنه يريد أن يمحوَ الصّيغة الّتي أعطيت له في كتابةٍ سابقة ، ولكي يبرهنَ على إمكانه بالحركيّة ، بالحريّة اللاّ نهائيّة ، وبقطيعة الحدود . في هذا الوعد نَتعرّف على أفضل شهادةٍ لرجاءٍ وطيد يقبض على جميع الظروف لكي يعلن ذاته ، في اندفاعٍ ليس أبداً واحداً ، مع أنه موجّهٌ دائماً نحو الهدف نفسه . التجدّد المتواصل في قَوْلِ الأمل لازمٌ بقدْرِ ما يطمح « الحضور » إلى الإفلات من حسرة ، والتميّز من كلّ ما يجمد في كتابة . ولكي لا يكون « الحضور » محجوباً بالصّور التي تسمّيه أو تكتفي باستدعائه ، لا بد من أن تكون هذه الصّور متبدّلةً ، غيرَ دائمة ، لكي تقدرَ أن تنزلقَ ، إن صحّ التّعبير ، الواحدة تحت الأخرى ، ولكي يقدر البيت ، الأرض ، النّار ، اللّحظة أن تتبادَل جميعاً قوّتها الرمّزية . هذا الوجهُ في الأبحاث والنّصوص حول الفنّ يقرّبها كثيراً إلى القصائد ذاتها . القولُ النّقدي في هذه الصّفحات ، في علاقة اتّصالٍ مع الصوت الذي يتكلّم في الأعمال الشعريّة . وتشكّل القصيدة المِحكّ لما أُشيرَ إليه من بعيدٍ في الدّراسة : الأفق المشتَرك ، المهدوفُ عبرَ شعر بونّفوا وبحثه ، هو اللحظة الواحدة نفسُها (لكي نستعيد عبارة يكرّرها غالباً) . وتظهر مقاربته في الإشراق المتزايد ، في شعور التّبسيط والمصالحة ، في أسلوبٍ آخر حيث تعقب لهجة القبول لهجةَ الصّراع ، بينما تَتّسع حتّى في النّحو شبكة المتطلّبات الشكليّة .

غيرَ أنّ تعدّدية الاندفاعات التي تصل في أبحاث بونّفوا حتى تُخْم الحضور ، منظوراً إليه أخيراً بوصفه ممكناً ، تَسْتدعي أيضاً شرحاً آخر : فهذه الاندفاعات كثيرة جدّاً إذ تنبغي ، وقد أُعلِنَ الأمل ، العودةُ إلى العالم ، أو بالأحرى إلى غياب العالم الذي أسْلَمَنَا إليه التّاريخ ؛ تنبغي العودة إلى زمنِنا — زمن التّيه والانتظار ، إلى الفُسحَة بين عالمين . والسّفر مجدّداً مِن هناك . بعد أن نُحييَ الفجرَ ونحتفلَ بالنّهار الجديد ذاته ، ونُرَدَّ إلى الرّماديّ والبارد ، — ليس دون بعض المعرفة ، ليس دون تحذيرٍ من الشّراكِ التي ينبغي أن نتجنّبها ، ومِن أوهام الرّغبة .

تُولّد أيضاً غواية العوالم المنفصلة ، دعوة الصّور ، النجدة المطلوبة للكتابة ولأشكالها الأسيرة ، بحيث تفرض نفسها من جديد ، ضرورة الانفصال عن هذا « العالم — الصورة » ، والدّعوةِ له بـ « الصّاعقة » التي تَلْتهِم — لكي تنفتح عيونُنا على « المكان الحقيقيّ » .

(. . .)

البدايةُ مِن جديدٍ هي هنا ممارسةٌ بوصفها شرطَ التقدّم . لكن يُؤكّد على زمنين متمايزين ، ويقال لنا إن عليهما أن يتكرّرا : لحظة انحباس الأمل في عالم الكلمات التي بناها هو نفسه ، ولحظة الانفصال « إلى الأمام » ، التي تضحّي بالكلمات من أجل مستقبلٍ مسكونٍ بمزيدٍ من الحقيقة . التخلّي عن العالم المجدب لكي « نكتب » ، ثم التخلّي عن الكتابة (خطيئة لا مفرّ منها) مِن أجل « المكان » . لا يمكن هذا نفسه إلاّ أن ينكتب ، وهو لا يُفْلِتُ من الخطر إلاّ منكتباً من جديد ، بشكلٍ آخر ، في كلماتٍ تُحَسّ بوصفها أقلَّ عتَمَةً .

التّقدّم عبر الانفصالات والبدايات من جديد هو ما قد يُصبح بَدَهيّاً بشكلٍ أوضح ، خصوصاً أنّ مجموعات بونّفوا الشعريّة الأربع مضمومةٌ في واحد: قصائد . يرسم كلّ جزءٍ من هذه الأجزاء الأربعة المكوِّنة مَساراً ، وينظّم تواليَ عناصره موجِّهاً إياها في اتجاه « المكان الحقيقي » . إنّ كلاً من النّهايات ، الموضوعة جنباً إلى جنب ، المجموعة بين دفّتي غلافٍ واحد ، تفقد صفة المطلق التي كنّا أغرينا بإضفائها عليها ، تُصبح مؤقّتة ، كمثل ذروة موجةٍ صائرةٍ إلى السّقوط لكي تتبعَها موجةٌ أخرى . ولمن يقرأ المجموعةَ كما ينبغي أن تُقرأ — أعني باستمرار — يرتسم ببداهةٍ أقرب فأقربَ ، المسارُ — بين عالمين — برحابةٍ أكبر ، بِسِمَةٍ أقلّ تشنّجاً ، في شفافيةٍ تقبل بعدَدٍ متزايدٍ أشكالَ المرئيّ . يبدأ الجزء الرابع « في خديعة العتبة » بِمعايَنة الجَزْر : التجمّع (الذي تَمّ) تفرّق ؛ المعنى (الذي كان قد شَعّ) تبدّد ؛ مِن جديدٍ نحن في اللّيل . ويعقب حلمٌ آخر ما يتّضح أنّه لم يكن إلا حلماً (حيث يُفتقد « ما يمكن الاحتفاء به ») . ومن جديدٍ يَحضر النّفيُ في موقعٍ بَدْئيّ :

لكن ، كلاّ ، دائماً
من انتشار جناح المستحيل
تستيقظ صارخاً
في المكانِ الذي ليس إلا حلماً (١٢) .

الخارجُ مُدرَكٌ من جديدٍ ، لا في حضوره المتجسّد ، في مَحدوديّته بل بوصفه انعكاسَ عالمٍ قائمٍ في مكانٍ آخر :

---

(١٢) قصيدة النهر : في خديعة العتبة . (م.م) .

المدى الذي يبدو مرسوماً في الفراغ
كتل أوكسيد الكوبالت النّيّر في الوادي
لا تكاد ترتعش ، ربّما هي انعكاس
أشجارٍ أخرى وحجارةٍ أخرى في النّهر .
(قصيدة النّهر : في خديعة العتبة) .

ففي القول بأنّ المظهرَ ليس إلا انعكاساً يكمن ، كما يرى بونّفوا ، الإغواء الأبديّ « ذو المنزع الأفلاطوني » الذي يلازم الفكر الغربيّ . وهو يذكّر بهذا في دراسةٍ حديثة العهد عن الهايكو ، حيث سَنحت الفرصة للمقابلة بين موقفين من الواقع :

« وأنا الذي يريد أن يدلّ على الغيمة المتوهّجة ، الغيمة البيضاء ، حيث يضيع ويتبدَّدُ كلّ شيء ، أنا في هذه اللّحظة نفسها ، فكريّاً ، في إحدى قرانا على الجبال ، ذات البيوت الثقيلة المصنوعة من أوكسيد الكوبالت ، في واحدٍ من هذه الأمكنة الّتي لا تعرف اليابان ما يشبهها ، المصنوعة لكي تَستْبقي المطلقَ في وجودنا كمثل ما تُصان النّار بين أحجار الموقد : وأخرج من واحدٍ نصف مهدّم لكن في ذلك حياة ، وأنظر في الأفق ، في المغيب ، غيمة حمراء تؤجّج السّماء بضيائها الذي أتساءل دائماً إذا لم يكن انعكاسَ ضياءٍ آخر (١٣) » .

يقول لنا هذا النصّ إن « الاندفاعَ نحو المستحيل » سَيتكرّر في المستقبل ذاته ، بينما في نهاية « خديعة العتبة » ، تفصح الوحدة عن نفسها بين الأشياء الّتي أصبحت مِن جديدٍ حاضرة ، جواباً عن البيت

---

(١٣) مقدمة لقصائد هايكو Haïku ، ترجمة روجيه مونييه R. Munier باريس ، ١٩٧٨ .

الثاني في هذه القصيدة الطويلة (حيث كان ينتشر « جناح المستحيل ») — « جناح المستحيل ، المنطوي » . إذن ، لا تقدّم أبداً . مِن جديدٍ ينبغي الانطلاق في الحلم ، ومن جديدٍ ينبغي نفيه .

نَفيهُ ؟ ربّما ، أخيراً ، يصل بونّفوا (مؤلّف السِّير الحلميّة المدهشة) إلى نوعٍ من الهدنة المسلّحة . ربّما يصل ، دون أن يفقد أمله بِـ « المكان الحقيقيّ » ، إلى القبول بأن تكونَ فسحة الكلامِ قائمةً في ما بين العالمين ، وحتى إلى قبولٍ مزدوج : بين عالم منفانا المجدب ، والعالم — الصّورة ، الذي تبنيه الكلمات ، ثم بين هذا السّراب و « حديقة الحضور » . ربّما ينبغي القبول بالصّورة ، بالشّكل ، بِبِنى اللّغات (التي هي المنفى المفهوميّ) مِن أجل الوصول إلى الحضور الذي ليس تعالياً ثانياً ، بل عودة قانعة بالحقيقة العارضة للمظاهر . وتقدر الصّورة أن تقودنا إليها ، على الرّغم من « بَرْدها » ، إذا تجنّبنا تجميدها ، إذا جعلناها تعترف بِوَقْتيّتها الخاصّة . في نهاية « خديعة العتبة » تتشكّل مِن جديدٍ العوالم (حيث أقرأ : عوالم — صور) بعد تبدّدها :

رَمادُ
العوالم الخياليّة المبدّدة ،
فجرٌ ، مع ذلك ،
حيث تَتمهّلُ عوالِمُ قربَ الذّروات
تتنفّس مستعجلةً
الواحد مقابل الآخر ، كمثل
حيواناتٍ صامتة
تتحرّك في البرد .

الزّمنان ـ زمن رفض الخياليّ ، ثم زمن عودة الخيالي ، لكن بعد أن يُعدَّد ، ويُصبحَ « متُنَفَّساً » ـ هما هنا ، كما يبدو لي ، مُحدَّدان بالشكل الأكثر وضوحاً . كلّ شيء يجري كما لو أنّ الخياليّ ، المتّهمَ بحجب الواقعيّ وبالافتراء على المظهر ، وتأسّسه بوصفه عالماً منفصلاً ، استُقْبِلَ أخيراً بوصفه جزءاً شرعياً مِن عالَمٍ مصالَحٍ أكثر اتّساعاً . يوضح بدقّةٍ مدهشة نَصٌّ حول باشو (Bashô) القبولَ نفسه بما كان قد رُفِض بوصفه قوّةً حاجبة (اللغة بوصفها بِنيةً ثابتة ، الجمال الشكليّ) ، شَريطةَ أن يتدخّلَ مباشرةً ما ينتج الانفتاح . ويدرك بونّفوا الخطّ الرّفيع الفاصل الذي يحدّد داخل قصيدة قصيرة (الهايكو) الفسحة بين عالمين :

« حين نُصغي بانتباهٍ أشدّ ، نسمع صوتين تحت مظهر هذه النّجوم الثابتة ، صوتين متميّزين ومتقاربين في آن ، كمثل صَرْخة الحَدأة ، وهذه الوحدة في الاختلاف هي في ديمومتها القصيرة ، الجدليّةُ نفسُها ، بين التّيه والعودة (. . .) المفهومات ، نعم ، أوّلاً هذه البنية التي تتّجه لأن تكون منذ أن توجدَ الكلمات في أفواهنا ، ومعها هذه المبادلات من البروق في المعقول (. . .) . تعقبُ صَرْخةُ التجسّد لحظةَ اللاّتجسّد ، الكامن دائماً في اللّغة كأنّه خطيئتُها الفِطريّة . وهي ، أحياناً ، زهيدة جدّاً كمثل ورقةٍ يابسة تسقط ، لكن أهناك حاجةٌ إلى أكثرَ مِن بضعة تجعّداتٍ في الماء لكي ترجّ فكرةُ اللّحظة هدوءَ الجوهر » (١٤)؟

الزّمنانِ ـ الفسحة بين العالمين ـ يتقاربان هنا حتى الدّرجة القُصوى ـ مؤسسيْنِ « جدليّةً » مجمّعةً في « الدّيمومة القصيرة » . ويظهر التفحّص

---

(١٤) الغيمة الحمراء ، ص ٣٤٤ .

الدّقيق أنّ هذه « الجدليّة » تعمل ، كلّ لحظةٍ ، في نسيج « خديعة العتبة » ذاته ، مع أنّ ما بين العالمين لا يتجلّى بين بداية القصيدة وسطورها الأخيرة وحسب ، بل أيضاً في كلّ مكان وحتى في الأبيات الأخيرة :

الكلمات كمثل السّماء
اليوم ،
شيءٌ ما يتجمّع ، يتبدّد .
الكلمات كمثل السّماء
لا نهائية
لكن كلّها فجأةً في حفرة الماء الصّغيرة .

العنصر المزدوج في كلّ مكان : عالم — صورة للكلمات وفسحة السّماء المنفتحة ؛ زمن التجمّع يعقبهُ التبدّد فوراً ؛ لا نهائية ، لكنها مأسورةٌ في « حفرة الماء الصغيرة » (انعكاس وصورة أضفيت عليهما الشرعيّة بسبب وقتيّتهما نفسها ، قِصرهما) ؛ فسحة من الأعلى حيث تعبر الغيوم ، ووطنٌ ترابيٌّ حيث يقيم الماء بتواضعٍ في الحُفْرة . . . الصّراعُ في هذه الكلمات البسيطة مُهدّأٌ ، لكن العَتبةَ لم تُعبَرْ : السّلام الذي يتأسّس يترك للفسحة أن تستمرّ بين العوالم ، أعني التّعارضَ الذي لن يكون دونه معنىً للوحدة .

جان ستاروبنسكي
Jean Starobinski

ضدّ أفلاطون

Anti - Platon

(١٩٤٧)

I

المسألة حقّاً هذا الشيء : رأسُ حصانٍ أكبرُ من المُعتاد حيث تَنْتَقش مدينةٌ بكاملها ، تجري شوارعها وأسوارها بين العيون ، متآلفةً مع تعرّج الخطّ وامتداده . عرف رجلٌ أن يبنيَ هذه المدينة من الخشب والورق المقوّى ، وأن يُضيئها ، مُوارَبَةً ، بقمرٍ حقيقيّ ، والمسألة حَقّاً هذا الشيء : رأس امرأةٍ من الشمع يدور مُشَعّثاً على قُرْصٍ حاكٍ .

أَشْياءُ هذا المكان ، بلاد أشجار السّوْحر ، الثوب ، الحجر ، أعني : بلاد الماء على السّوْحَر والحَجر ، بلاد الثياب المبقّعة . هذا الضّحك المغطّى بالدّم يضغطُ ، أكثرَ ثقلاً في رأسِ الإنسان ، من المُثُل الكاملة التي لا تعرف إلاّ أن تبهتَ على فمه :

أقول لكم ، أيّها المتاجرون بالأبديّ ، يا وجوهاً متماثلةً ، يا غيابَ النّظر .

II

السّلاح الوحشيّ فأسٌ بقرونٍ من الظلّ ، محمولةٌ على الحجر ،
سلاح الشحوب والصّراخ حين تلتفتين مجروحةً في ثوبكِ العيديّ ،
فأسٌ إذ يلزم أن يبتعدَ الزّمن على رقَبتكِ ،
أيّتها الثّقيلة ويا ثِقل بلادٍ بكامله ، على يديكِ يسقط السّلاح .

III

أيّ معنىً نعطيه لهذا : رجلٌ يُشكّل من الشّمع واللّون هيكلَ امرأة ، يزيّنه بجميع التّشابهات ، يجبره أن يحيا ، يُضفي عليه بلعب الإضاءة العارفِ هذا التّرددَ نفسه في آخر الحركة التي تعبّر عنها كذلك الابتسامة .

ثم يتسلّح بمشعلٍ ، يترك الجسمَ كلّه إلى أهواء اللّهب ، يشاهد التّشويهَ وتمزّقات الجسد ، يُصمّم في اللّحظة ألفَ شكلٍ مُحتَمل ، يتنوّر بمسوخٍ كثيرة ، يَستَشْعِر سِكّيناً هذا الجَدَلَ المأتميّ حيث ينبعث تمثال الدّم ويَتجزّأ في هُيام الألوان والشمع ؟

IV

تتلاحق بلاد الدّم تحت الثوب في ركضٍ أسودَ دائماً
حين يُقال هنُا يبدأ جسد الليل وتمتلىء الطرّق الباطلة رملاً
وأنتِ العالمة تُشعلين من أجل الضّوء مصابيحَ عاليةً في القطعان
وتنقلبينَ على عتَبةِ بلاد الموت الباهتة .

٧

رجلٌ أسيرُ غرفةٍ وضجيجٍ يخلط الورق . على ورقة : « أمقتكِ أيّتها الأبديّة ! » ، على ثانية : « لِتُخلِّصْني هذه اللّحظة ! »

وعلى ورقةٍ ثالثةٍ أيضاً يكتب الرّجل : « موتٌ مُحتّم » . هكذا يَسيرُ في صَدْعِ الزّمَنِ مُضاءً بجرحه .

VI

نحنُ من بلدٍ واحدٍ على فَمِ الأرض ،
أَنت رَشْفةٌ واحدة من الذّوبان مع تواطؤ أوراق الشّجر
وما يُسمّى أنا حين ينخفض النّهار
وتنفتحُ الأبوابُ ويُحكَى عن الموت .

VII

لا شيء يقدر أن يُخلّصه من وسواس الغرفة السّوداء . يُحاول عاكِفاً على دَنٍّ أن يُثَبِّتَ الوجهَ تحت صفحة الماء : دائماً تنتصر حركة الشّفتين .

وجهاً متحيّراً ، وجهاً ضائعاً ، أيكفي أن تلمس أسنانَها لكي تموت ؟ تقدر أن تبتسمَ في مرور الأصابع ، كما يستسلم الرّمل تحت الخطوات .

VIII

أسيرةً بين سارقيْ سطوحٍ خضراء محترقة

ورأسكِ الحجريّ مُهْدًى لِستائر الرّيح ،

أنظر إليكِ تخترقين الصّيف (كمثل عباءةٍ مأتميّة في لوحة الأعشاب السّوداء) ،

أصغي إليكِ تَصْرخين في الوجه الآخر من الصّيف .

IX

يُقال له : احفرْ هذا القليلَ من الأرض السّهلة الحفْر ، رأسَها ، إلى أن تعثرَ أسنانُكَ على حجر .

لا ينفعل إلاّ بالترنّم ، بالعبور ، برعشة التّوازن ، بالحضور المؤكّد في انفجاره من كلّ صوب ، يبحث عن طراوة الموت المكتسح ، يَنتصرُ بيُسرٍ على أبديّةٍ بلا فُتوّة وعلى كمالٍ دون احتراق .

حول هذا الحجر يَغْلي الزّمن . بِلَمسِ هذا الحجر ، تدور مصابيح العالم ، وتَنْتشرِ الإضاءةُ السّريّة .

دوڤ * ، حركةً وثباتاً

DU MOUVEMENT ET DE L'IMMOBILITÉ DE DOUVE

(1953)

لكنّ حياة الفكر لا ترتعبُ أبداً أمام
الموت وليست تلك التي تَعْرى منه . إنّها
الحياةُ التي تتحمّلهُ وتستمرّ فيه .

هيجل

* ڤ ، يقابل الحرف الفرنسي V ، ولتمييزه عن الحرف العربي ف .



مســـرح

I

كنتُ أنظر إليكِ تركضين فوق المشارف ،
كنتُ أنظر إليكِ تصارعين الرّيح ،
وكان البرد ينزفُ من شفتيكِ .

ورأيتكِ تتفكّكين وتَسْتَمْتِعينَ بموتكِ أيّتها الأجملُ
مِن الصّاعقة ، حين تُبَقّع بدمكِ زجاجَ النّوافذِ الأبيض .

II

كان الصّيفُ الشّائخ يُشقّقُكِ بلذةٍ رتيبةٍ ، وكنّا نحتقر سُكْرَ الحياة النّاقص .

« أَوْلى اللّبلابُ ، كنتِ تقولينَ ، التصاقُ اللّبلاب بحجر ليله : حضورٌ بلا مَخْرج ،

وجهٌ بلا جَذْر .

« آخرُ نافذةٍ زجاجيّة سعيدة يُمزّقها الظّفْرُ الشّمسي ، أَوْلى في الجَبَلِ

هذه القرية حيث نموت .

« أَوْلى هذه الرّيح . . . » .

III

كنّا نَعني ريحاً أقوى من ذكرياتِنا ،

غيبوبة ثيابٍ وصرخة صخورٍ — وكنتِ تعبرينَ
أمامَ هذا اللّهب

رأسُكِ مُجزّأٌ في مُرّبعاتٍ ويداكِ مشقوقتانِ وكلّكِ

بحثٌ عن الموت في الطّبول الجَذْلى بحركاتكِ .

كان ذلك يومَ نهديكِ

وكنتِ أخيراً تملكينَ غائبةً عن رأسي .

IV

أَستيقظ ، تُمطر . تَتَغَلْغَلُ فيكِ الرّيح ، يادوف ، أيّتها الأرضُ الصّمغيّة الرّاقدة إلى جانبي . أنا على مَشْرِفٍ ، في ثقبٍ للموت . تَرتجفُ كلابٌ كبيرة من أوراق الشّجر .

الذّراعُ الّتي ترفعينَها ، فجأةً ، فوق بابٍ ، تُضيئني عبْر العُصور . قريةٌ من الحجر أنتِ ، يادوف ، كلّ لحظةٍ أراكِ تُولدين ،

وكلّ لحظةٍ تموتين .

V

الذّراعُ التي نرفعُها والذّراع التي نُديرها
ليستا من لحظةٍ واحدةٍ إلاّ لِرأسينا الثّقيلين ،
لكن وقد نبذْنا هذه الأغطيةَ من الخُضرة والوَحْل
لم يَبْقَ إلاّ نارٌ من مملكة الموت .

السّاق العاريةُ حيث تتَغَلْغَل الرّيح العاصفةُ
دافعةً أمامَها رؤوساً من المطر
لن تُضيئكِ إلاّ على عتبة هذه المملكة ،
يا حركاتِ **دوڤ** ، يا حركاتِ تَباطأت ، يا حركاتٍ سَوداء .

VI

أيُّ شحوبٍ يضربكِ ، أيّتها السّاقيةُ الجَوْفيّةُ ، أيّ مَفْصلٍ فيكِ ينكسرُ حيث يُدوّى صدَى سقوطكِ ؟

هذه الذّراعُ التي ترفعينها ، بَغْتةً ،تتفتّح ، تَلْتهب . يتراجَعُ وجهكِ . أيُّ ضبابٍ مُتَكاثفٍ يسلبني نظرتك ؟ يا جُرْفَ ظلٍّ بطيءٍ ، يا تُخْمَ الموت .

تَسْتقبلكِ أذرعٌ خُرْسٌ ، أشجارٌ من ضِفّةٍ أُخرى .

VII

مجروحةً مضطربة بين الأوراق ،
لكن مأسورةً بدم الدّروب التي تضيعُ ،
ما زلتِ شريكةَ الفعل الحيّ .

رأيتكِ في نهاية صراعكِ تَمْتلئين رملاً
حائرةً على تخوم الصّمت والماء ،
وفَمكِ الملطّخُ بالنّجوم الأخيرة
يقطع بصراخه رعبَ السّهر في ليلكِ .

آه أيّتها النّاهضة فجأةً في الهواء القاسي كمثل صخرةٍ
حركةً فَحْميّةً جميلة .

VIII

تبدأ الموسيقى المضحكة في الأيدي ، في الرُّكَب ، ثم يُطَقْطِقُ الرأسُ ، وتترسّخُ الموسيقى تحت الشّفتين ،ويَنفذُ يقينُها إلى مُنْحدَر الوجه الخفيّ .

الآن تتصدّع المناجِرُ الوَجْهيّة . الآنَ يُباشَرْ باقتلاع النّظَر .

IX

بيضاء تحت سَقْفٍ من الحشرات ، سَيّء الإضاءة ، جانبياً
وثوبكِ مُبَقّعٌ بسمّ القناديل ،
أكتشفكِ ممدّدةً ،
فمكِ أعلى من نَهْرٍ يتكسّر بعيداً على الأرض .

وجوداً مُفَكّكاً يَجمعهُ الوجود الذي لا يُغلَب
حضوراً مُتَملّكاً في مشعل البرد ،
دائماً أيّتها الرّاصدةُ أكتشفكِ ميتةً ،
وفي هذا البرد أسهر يا **دوف** التي تقول **فينيق** .

X

أرى **دوفى** ممدّدةً . أسمعها تُدمدمُ في ذروة الفضاء الجسديّ .
الأمراءُ ــ السّودُ * تُسرّع حركات فكّها الأسفل عبرَ هذا المكان حيث
تنبسط يدا **دوفى** ، عظاماً مُنْفكّةً عن جسدها تتحرّك في نسيجٍ
رماديّ يُضيئه العنكبوت الضّخم .

---

* جنس من الخنافس . (م.م) .

XI

مُغطّاة بِدُبَالِ العالم ، الصّامت
تجوبُها خيوط عنكبوتٍ حيّ ،
وكانت قد خضعت لصيرورة الرّمل
وتَفَتّتَتْ معرفةً سِرّية .

مزيّنة من أجل عيدٍ في الفراغ
والأسنان مكتشفَةٌ كأنّما للحبّ ،

ينبوعاً لموتي الحاضر الذي لايُطاق .

XII

أرى **دوف** ممدّدةً . في مدينة الهواء الأرجوانيّة حيث تتقاتل الأغصان على وجهها ، حيث تجدُ الجذورُ دروباً في جسدها، يشعّ من الحشراتِ فرحٌ مُصَرْصِرٌ وموسيقى كريهة .

بخطوةِ الأرض السوداء ،تلتحق **دوف** بمصباح الهضباتِ الكثيرِ العُقَد ، مدمّرةً ، جذلى .

XIII

وجهكِ هذا المساء مضاءٌ بالأرض ،
لكن أرى عينيكِ تتعفّنان
ولم يعد لكلمة وجه من معنى .
البحرِ الداخليّ الذي تُضيئه نسورٌ محوّمة ،
تلك هي صورة .
أحْتفظ بكِ باردةً في عُمْقٍ
لم تعد تنمو فيه الصُّوَر .

XIV

أرى دوف ممدّدةً . في غُرفةٍ بيضاء ، عيناها مطوّقتان بالجِصّ ، فمُها يُثيرُ الدُّوار ، ويداها أسيرتا العشب الكثير الذي يجتاحها من جميع الجِهات .

يَنْفتح الباب . تتقدّم أوركسترا . تغمرها عيونٌ بعدّة مظاهر ، صدورٌ مُتَزَغّبة ، ورؤوسٌ باردة بِفَلَكٍ أسفل ومناقير .

XV

أراكِ تغيبينَ ،
أنتِ من تملكُ جانبيّةً حيث تَستَبْسِلِ الأرض .

العشب العاري على شفتيكِ وبريقُ الصّوان
يبتكران ابتسامتكِ الأخيرة ،

علماً عميقاً يحترق فيه
كتاب الحيواناتِ الذّهبيّ القديم .

XVI

مأوى نارٍ قاتمة تَفيءُ إليه منحدراتُنا . تحت قِبابه أراكِ تَلمعين ، يا دوف الجامدة ، أسيرةً في شبكة الموتِ العموديّة .

دوف عبقرية ، مقلوبة : حين تبلغ الطّبقات السّفلى بطيئةً بخطوة الشّموس في الفضاء المأتميّ .

XVII

يدخل الوادي في الفم الآن ،
تتبعثر الأصابع الخمسُ اعتباطاً في الغابات الآن ،
يحوي الرأس الأوّل بين الأعشاب الآن ،
يتزّين العنقُ بالثلج والذّئاب الآن ،
تجلب العينان الرّيح لعابري الموت ونحن في هذه الرّيح
في هذا الماء في هذا البرد الآن .

XVIII

حضوراً كاملاً لن يعرفَ أيُّ لهبٍ بعد الآن أن يحاصره ؛ حارسة لِلبرد السّريّ؛حيّةً بهذا الدّم الذي يُبعَثُ ويفيض حيثُ تتمزّق القصيدة ،

هكذا كان ينبغي أن تظهري على الحدود الصّماء ، وأن تُمتَحني مِن موقعٍ مأتميٍّ حيث يتعاظَمُ ضوؤكِ .

آه أيتّها الأكثر جمالاً والموت مبثوثٌ في ضِحكتكِ ! أجرؤ الآنَ أن أقابلكِ ، أن أدعمَ بريقَ حركاتكِ .

XIX

في اليوم الأوّل من البرد يهرب رأسُنا
كمثل سجينٍ يفرّ في الأوزونِ الأكبر ،
لكن يا **دوف** ، بلحظةٍ يسقط ثانيةً هذا السّهم
ويكسر على الأرض أكاليلَ رأسه .

هكذا ظَنَنّا أنّنا نتقمّص حركاتِنا ،
لكنّنا ، وقد أُنْكِرَ الرأس ، نشرب ماءً بارداً
وتزيّن أكداس الموتِ ابتسامتكِ
فُتْحةً تُمْتَحَنُ في كثافةِ العالم .

إلى الأشجار

أنتِ المحوَّةُ على طريقها ،
مَنْ أغلقتِ دروبكِ عليها ،
ضامنةً بلا انفعال أنّ دوڤ وإن ماتت
ستكون ضوءاً كذلك ، هي اللّاشيء .

أنتِ المادّة الليفيّةُ والكثافة ،
أيّتها الأشجار ، القريبة إليّ حين اندفعت
في سفينة الموتى مطبقةً فمَها
على عُمْلة الجوع والبرد والصّمت .

عبْرَكِ أسمع الحوارَ الذي تُقيمه
مع الكلاب ، مع النّوتيّ الذي لا شكل له ،
وأنتمي إليكِ بهذا السّير
عبْر ليلٍ طويل ورغمَ هذا النّهر .

الرّعد العميق الذي يتدحرجُ على أغصانكِ ،
الأعياد التي يُشعلها في ذُروة الصّيف
تَعني أنّها تجمع حظّها إلى حظّي
في توسّط زهدكِ .

بماذا نُمْسِك ؟ *

بماذا نُمسك إلاّ بما يُفْلت ،
ماذا نَرى إلاّ ما يُظلم ،
ماذا نشتهي إلاّ ما يَفْنى ،
إلاّ ما يتكلّم ويتمزّق ؟

أيّها الكلام القريبُ إليّ
عمّ نبحث إن لم يكن عن صمتك ،
عن أيّ ضوءٍ إن لم يكن عن وعيك
العميق الدّفين ،

أيّها الكلام المُلقى هَيُولياً
على الأَصْل وعلى اللّيل ؟

---

* العنوان من وضعنا (م.م) .

الشاهد الوحيد

I

حين أسلمتِ الرّأسَ لِلَهب البحرِ ، الأسفل
وأضاعتِ اليدين
في غورِ المضطرب ، ورمَتْ
شعرَها إلى هَيُولَى الماء ؛
حين ماتت ، لأنّ الموتَ هو هذه الطريق
العموديّةُ تحت الضّوء
ولا تزال سكرى بموتها : آهِ كنتُ
أيّتها الماجنةُ المُستَهلكَةُ ، فرحاً قاسياً لكنّه خادِع
كنتُ الشاهدَ الوحيد ، الحيوانَ الوحيد المأخوذَ
في شبّاكِ موتكِ التي كانت رمالاً
أو صخوراً أو حرارةً ، إشارتَكِ مثلما قُلْتِ .

II

تَهربُ نحو الصَّفْصاف ؛ تغمرها
ابتسامة الشّجر ، مُتَصنّعةً
فَرَحَ اللّعب ، لكنّ الضّوءَ
قاتِمٌ على يديها المتوسِّلتين ،
وتجيء النّار لتغسل وجهها ، وتملأَ فمَها
وترميَ جسدها في هاوية الصّفصاف .
أيّتها الهاويةُ من جذْع المائدة الأوزيريسيّة
في مياه الموت !
مرّةً أخيرةً بنهديكِ
تنوّرينَ الضّيوف .
لكنكِ تبسطين نهارَ رأسكِ الجامد
على الأماكن الجحيميّة العاقرة .

III

يكفي الفضاء القليلُ بين الشجرة والعتَبة
لكي تَنْطلقي أيضاً ولكي تموتي
ولكي أظنّ أنني أحيا من جديدٍ في ضوء
الظّلال التي كنتِ .

ولكي أنسى
وجهكِ صارخاً على كلّ جدار ،
أيّتها الماجنة التي ربّما تصالَحتْ
مع الظلّ الغامر السّعيد فوق الحجر .

IV

هل أنتِ ميتةٌ حقاً أم لا تزالين تلعبين
لاصطناع الشّحوب والدّم ،
أنتِ يا من تستسلمين بهيامٍ إلى النّوم
كما لو أنّكِ لا تعرفين إلاّ الموت ؟
هل أنتِ ميتةٌ حقّاً أم لا تزالين
تلعبين في كلّ مِرآةٍ
لإضاعة صورتك ، حرارتك ودمك
في عتَمةِ وجهٍ جامد ؟

V

أين الآن الأيّل الذي شَهد
تحت أشجار العدالة هذه ،
أنّها فتحت طريقاً من الدّم ،
وابتكرت صمتاً جديداً ،

أنّها ماتت لابسةً ثوبَها كمثل بحيرةٍ من الرّمل ،
كمثل البَرْد ،
كمثل أيّلٍ مُطارَدٍ في التّخوم ،
لابسةً ثوبها الأجمل ،
وأنّها عادت من أرضٍ أفعوانيّة ؟

VI

فوق شتاءٍ مُوحلٍ كنت ، يا دوف ، أطرحُ
وجهكِ الغابيّ المضيء المنخفض .
كنتُ أظنّ كلّ شيء يبتعد ، كلّ شيء يتفكّك .

رأيتكِ ثانيةً عنيفةً ضاحكةً بلا عودة .
تُغطّين بشعركِ بريقَ وجه أدكن
في مساء فُصولٍ باذخة .

سِرّيةً ، رأيتكِ ثانيةً . تظهرين
على حدود الشّجر كمثل نارٍ حين يضغط الخريف
هديرَ العاصفة في قلب الأوراق .

أيّتها القَفْراءُ والأكثر سواداً ! أخيراً رأيتكِ ميتة ،
بَرْقاً لا يُهدّأُ يسندُه العدم ،
نافذةً زجاجيّة انطفأت ، وبيتاً مظلماً .

اسم حقيقي

سأسمّي صحراءَ هذا القصر الذي كُنْتِهِ ،
ليلاً هذا الصّوتَ ، غياباً وجهَكِ ،
وحين تسقطين في الأرض العاقر
سأسمّي البَرْقَ الذي حَمَلكِ ، عدماً .

الموت وطنٌ كنتِ تحبّينه . أجيء
لكن أبديّاً من دروبكِ المظلمة .
أهدم رغبتكِ ، شكلَكِ ، ذاكرتكِ
فأنا عدوّكِ الذي لن يرحم .

سأسّميكِ حرباً وَسأُمارس
عليكِ حرّيات الحرب وسيكون
بين يديّ وجهُكِ القاتم المخترَق
وفي قلبي هذا الوطن الذي تُضيئه العاصفة .

لكي يظهرَ الضوء العميق يحتاج
إلى أرضٍ أنْهكَها اللّيل وشقّقَها .
فمن الغابة المدلهمّة ينفجرُ اللّهيب .
تلزم للكلام نفسه مادّةٌ ،
شاطىء هامدٌ فيما وراء النّشيد .

لكي تَحيي ينبغي عليكِ أن تعبري الموت ،
فالحضورُ الأنْقى هو الدّمُ المُراق .

الفينيق

سَيُوضَعُ الطائر أمام رؤوسنا ،
وستَنْهضُ لأجله كتِفٌ من الدّم .
فَرِحاً سَيُطْبق جناحيه على ذُرْوة
هذه الشجرة جسدكِ الذي ستقدمّينه له .

سيغنّي طويلاً مبتعداً بين الأغصان ،
ويَجيء الظلّ ليُزيلَ حدودَ صراخه .
سيجرؤ رافضاً كلّ موتٍ منقوشٍ على الأغصان
أن يعبرَ ذُرواتِ الليل .

أأنت هذا الحجر المفتوحُ ، هذا المسكن المخرّب
كيف يمكن الموت ؟

أحضرتَ ضوءاً ، بَحثتَ ،
كان الدّم يهيمن في كلّ مكان ،
وكنت بجسدي كلّه أصرخ وأبكي .

[illegible] حقيقي

أطْفئ [illegible] وغَسيل الوجه ،
طهر [illegible] ، دين
هذا القدرُ المضيء في أرض الكلمة ،
واكتملَ الزّواج الأكثر انخفاضاً .

سكتَ هذا الصوت الذي كان يصرخ في وجهي
أنّنا كنّا زائغين منفصلين ،
سُدّت هاتان العينان : وأُمْسِكُ بدوف ميتة
في شَراسة الذّاتِ مُغْلقةً بي .

ومهما يكن قاسياً البرد الذي يصعد من وجودكِ ،
ومهما يكن لاهباً جليدُ أعماقِنا ،
فأنا فيكِ ، يا **دوف** ، أتكلّم ، وأحصرك
في فعل المعرفة وفعل التّسمية .

فنّ الشعر

وجهٌ مفصولٌ عن غصونه الأولى ،
جمالٌ نَذيرٌ بسماءٍ منخفضة ،

في أيّ موقدٍ نشعل نار وجهكِ
أيّتها الماجنة التي قُبض عليها مرميّةً
ورأسُها إلى الأسفل ؟

أيّ كلامٍ ؟ *

أيّ كلامٍ قربيَ انبجسَ ،
أيّ صراخٍ شبّ على فمٍ غائب ؟
لا أكاد أسمع صرخةً إزائي
لا أكاد أُحسّ بهذا النّسَم الذي يُسمّيني .

مع ذلك تجيء منّي هذه الصّرخة عليّ
إنني مَخْفيٌّ في غرابتي .
أيّ صوتٍ غريبٍ أو إلهيّ
رضيَ أن يسكن في صَمتي ؟

* العنوان من وضعنا (م.م) .

صـــوت

أيّ دارٍ تريد أن ترفعَها من أجلي ،
أيّة كتابةٍ سوداء حين تجيء النّار ؟

*

تراجعتُ أمام إشاراتكَ طويلاً
طردتَني من كلّ كثافة .

*

لكن ها هو اللّيل المتواصل يَحرسني
سأنجو منكَ على أفراسٍ داكنة .

صوت آخر

فيما تحرّكين شعركِ أو رمادَ الفينيق ،
أيّة حركةٍ تختبرينَ حين يتوقّف كلّ شيء ،

وحين يضيء موائدكِ منتصفُ اللّيل في الكائن ؟

*

بأيّة إشارةٍ تحتفظين على شفتيكِ السّوداوين ،
وبأيّ كلامٍ فقير حين يصمت كلّ شيء ،

جذوةً أخيرةً حين يَحتار الموقد ويَنغلق ؟

*

سأعرف أن أحيا فيكِ سأنتزعُ
كلّ ضوءٍ فيكِ ،

كلّ تجسّدٍ ، كلّ صَخرةٍ بحريّة ، كلّ قانون .

*

وفي الفراغ حيث أرفعكِ سأفتح
طريق الصّاعقة

أو أعظم صرخة صرَخها الكائن .

إن كان . . . *

إن كانَ هذا اللّيل آخرَ غيرَ اللّيل ،
انبعِثْ ، أيّها الصّوت البعيدُ ، الخيِّر ، أَيْقِظ
الصّلصالَ الأكثرَ وقاراً حيث نامت البذرة .
تكلّم : لم أكن إلاّ أرضاً تتشوّق ،
ها هي أخيراً كلمات المطر والفَجْر .
لكن تكلّم وَلْأكنِ الأرض الملائمة ،
تكلّم إن كان لا يزال ثمّةَ نهارٌ دفين .

---

* العنوان من وضعنا (م.م) .

دوف تتكلّم

I

قلتِ أحياناً فيما تتشرّدين فجراً
على دروبٍ دكناء ،
كنتُ أشاركُ الحجرَ نومه ،
ومثلَهُ كنت عمياء .
وها جاءت تلك الرّيحُ الّتي أوْضَحتْ
هزْليّاتيَ في فصل الموت .

كنتُ أشتهي الصّيفَ ،
الصّيفَ اللاهبَ لكي أُجفّف دموعي ،
وها جاءَ ذلك البردُ الذي نَمَا في أعضائي ،
وكنتُ مُسْتَيقِظةً وتعذّبت .

II

أيّها الفصل المشؤومُ ،
أيّتها الأرضُ الأكثر عريْاً كمثل الشّفْرة !
كنت أشْتهي الصّيفَ ،
مَن كسَرَ هذا الحديدَ في الدّم القديم ؟

كنتُ حقّاً سعيدةً
إلى هذه الدّرجة من الموت .
ضائعة العينين ، أفتحُ يَديّ على وَحْل
مَطرٍ أبديّ .

كنت أصرخ ، كنتُ بوجهي أجابهُ الريح . . .
لماذا الحقدُ ، لماذا البكاء ، كنتُ حيّةً ،
يُرسّخني النّهار والصّيف العميق .

III

لِتنطفىءِ الكلمة
على هذا المظهر من الكائنِ حيث عُرِضْنا
على هذا الجَفافِ الذي تخترقه
ريح النّهاية .

لِيَتدحرجْ من الذُّروة
مضيئاً
المادّةَ الضّخمةَ التي لا تُقال ،
ذلك الذي كان يحترق واقفاً
كمثل دالية ، ذلك المغنّي الأقصى .

لِتنطفىء الكلمة
في هذه الغرفة السُّفلى حيث تَنضمُّ إليّ ،
لِينغلق موقد الصّراخ
على كلماتِنا الحمر .

لِيَنْهضِ البردُ وَلْيأخُذْ معنىً بموتي .

ما هذا اللّيل ؟ *

اسألي سيّد الليل ما هذا اللّيل

اسألي : ماذا تريد ، أيّها السيّد المنفصل ؟

غريقاً في ليلكِ ، نعم أبحث عنكِ فيه

أحيا بأسئلتكِ ، أتكلّم في دمكِ ،

أنا سيّد ليلكِ ، فيكِ أسهرُ كمثل اللّيل .

---

* العنوان من وضعنا (م.م) .

صـوت

تذكرُ تلك الجزيرة حيث بَنَيْنَا ناراً
مِن كلّ زيتونة حيّة في مُنحَدر القِمم ،
بَنَيْنَاها ليكون اللّيل أكثرَ علوّاً ولكي لا تجيء في الفجر
ريحٌ إلاّ من العُقْم .
ستَقيم مملكةٌ طرقٌ داكنة كثيرة
حيث نستعيد الكبرياء التي كنّا ،
إذ لا شيء يقدر أن يُنمّي قوّةً لا تَفْنَى
إلاَ اللّهبُ الذي لا يفنى وإلاّ أن يتهدّم كلّ شيء .
سأَلتحق بهذه الأرض الرّماديّة ،
سأمدّ قلبي على جسدها المدمّر .
ألستُ حياتَكَ في نذيرها العميق
التي لا صرحَ لها غير الفينيق في المحرقة ؟

اسأل لعينيك أن يكسرهما اللّيل
لن يبدأ شيءٌ إلاّ فيما وراء هذا الحجاب ،
اسأل هذه اللّذة التي يوزّعها اللّيل
أن تصرخ تحت الهالة السُّفلى لِلا أيّ قمر ،
اسأل لصوتكَ أن يخنقه اللّيل .

اسأل أخيراً البرد ، اشتهِ ذلك الفحمَ الحجريّ .

صـــوت

كمثلِ اللّهبِ حملتُ كلاميَ فيكَ ،
ظلماتٍ أكثر قسوةً من الرّياحِ في اللّهب .
ولا شيءَ أخْضَعَني في هذا الصّراع العميق
لا كوكبٌ مشؤومٌ ولا أيّ ضياع .
هكذا عشتُ لكن قويّةً باللّهب
ماذا عَرفتُ غير تعرّجه
واللّيل الذي أعرف أنه سيأتي حين تسقط ثانية
مِن علوّها ، النّوافذ الزجاجيّة الّتي لا قَدَرَ لها ؟
لستُ إلاّ كلاماً لمحاربة الغياب ،
سيهدم الغياب جميعَ أقواليَ المكرّرة .
نعم ، سُرعان ما نبيدُ لأنّنا لسنا إلا كلاماً
وتلك مهمّةٌ مشؤومة وخاتمةٌ باطِلة .

فينيق وأصوات خافتة

صوت

كنتِ حكيمةً لِأنّكِ فتحتِ ، جاء في اللّيل ،
وَضع قربكِ مصباح الحجر
أَرْقدكِ جديدةً في مكانكِ المألوف
صانِعاً من نظرتكِ الحيّة ليلاً غريباً .

صوت آخر

الآتيةُ الأولى في شكل عصفور
تقرع نافذتي الزّجاجية في مُنْتصفِ ليل سهري .
أَفتحُ وقد أَسَرني ثلجُها ، أسقط
ويُفلت منّي هذا المأوى حيث كنت أشعل ناراً كبيرة .

صوت

كانت ترقد مكشوفة القلب . في منتصف اللّيل ،
تحت أوراق الموتى الكثيفة ،
لِقمرٍ ضائعٍ صارتِ الفريسة ،
البيتَ الأليف حيثُ يتَجدّد كلّ شيء .

صوت آخر

بحركةٍ أَقامَ لي كاتدرائيّةً من البرد ،
آهِ فينيقُ ! يا لَذُرْوةِ الشّجر المُرْعبة التي صدّعها
الجليد ! كنتُ أتدحرجُ كمشعلٍ مقذوفٍ
في اللّيل نفسه حيث يتكوّن الفينيقُ من جديد .

تلك التي لا تزال ساهرة *

لكن لِتصمتْ تلك التي لا تزال ساهرةً
على الموقد ، وقد سقط وجهُها في اللّهب
التي لا تزال جالسةً ، لأنّها بلا جسم .

التي تتكلّم من أجلي ، وشفتاها مطبقتان ،
التي تنهض وتناديني ، ولا جسدَ لها ،
التي تمضي تاركةً رأسها مرسوماً ،

التي تضحك دائماً ، وكانت قد ماتت في الضّحك .

* العنوان من وضعنا (م.م) .

نحن كذلك من اللّيل *

سكوتاً لأنّنا نحن كذلك من اللّيلِ
الأُرُوماتُ الدّائرةُ الأكثرُ سَديميّةً ،
والمادّةُ المغسولةُ عائدةً إلى الأفكار
الهرمةِ المدوّيةِ حيثُ تَلاشتِ النّار ،
والوجهُ المفتّتُ لحضورٍ أعمى
خادمُ بيتٍ مَطْرودٌ مع كلّ نار ،
والكلامُ المَعيشُ لكن الميتُ بلا نهاية
حين صار الضّوءُ أخيراً ، ريحاً وليلاً .

* العنوان من وضعنا (م.م) .



حضور الموت *

هكذا سنسيرُ فوق أنقاض سماءٍ كبيرة ،
سَيكْتمِلُ الموقع البعيدُ
كمثل قَدَرٍ في الضّوء الحيّ .

ستَنبسطُ أمامنا أرضاً من السّمندلات (١)
البلادُ الفائقةُ الجمال والتي بحثنا عنها زماناً طويلاً .

ستقولين انظرْ إلى هذا الحجر :
إنه يحمل حضور الموت .
تحت حركاتنا يشتعل مصباحٌ خفيّ
هكذا نَسيرُ مُضَائيْن .

---

* العنوان من وضعنا (م.م) .

(١) مفردها سمندل . وجاء في لسان العرب أنه طائر إذا انقطع نسله وهرم ، ألقى نفسه في النار ، فيعود إلى شبابه . أو هو دابة يدخل النار فلا تحرقه . (Salamandre)
(م.م) .

HIC EST LOCUS PATRIAE (١)

كانت السّماء الدّنيا تتمزّق كثيراً لأجلكِ ، وكان الشّجر
يحتلّ فضاءَ دمك .
هكذا جاءت جيوشٌ أخرى ، يا كاسّاندر ،
ولم يقدر شيءٌ أن ينجوَ من عناقِها .

كان إناءٌ يزيّن العتَبة . على رخامه
يبتسم متكئاً ذلك الذي كان عائداً .
هكذا كان النّهار يهبط فوق المكان المسمّى **إلى الشجر**
كان نهاراً من الكلام وكان ليلاً من الرّيح .

كان المكان مقفراً ، والتّرابُ رَنّاناً وفارغاً
وكان المفتاح سَهْلاً في الباب .
تحت أشجار الحديقة ،
كان يترنّح الذّاهب ليعيشَ في ذلك الضّباب .

بدا بيتُ النّبات الزجاجيّ
الرّاحةُ الضرورية التي كان يَفيءُ إليها ،
كأنّه شيءٌ من الحجر بين الأغصان .

آه يا أرضَ القَدَر ! كانت قاعةٌ أولى
تصرخ من الهجر والورَق الميت .
وكان الضّوء في الثّانية الأكثر اتّساعاً
ينبسط غطاءً أحمرَ ورماديّاً ، كمثل سعادةٍ حقيقيّة .

---

(١) تعني حرفياً : « هنا هي البلاد » (م.م)

السّمندل

I

أنتِ **دوف** الآنَ في غرفة الصّيف الأخيرة .

يهربُ سمندلٌ على الجدار . رأسه الإنسانيّ الوديعُ ينشرُ موتَ الصّيف . « أريدُ أن أسقطَ فيكِ ، أيّتها الحياة الضيّقة ، تصرخ **دوف** . اجْرِ ، أيّها البرقُ الفارغ على شَفَتيّ ، اخترقْني !

« أحبّ أن أَضلّ ، أن أستسلمَ للأرض . أُحبّ أن لا أعرف أيّةَ أسنانٍ باردةٍ تمتلكني . »

II

مَدَى ليلةٍ كاملة حلمتُ بكِ ، يا **دوف** ، خَيْطيّةً لكي يَحسُنَ تقديمُكِ إلى اللّهيب . وتمثالاً أخضرَ مقترناً بالقشر ، لكي يَحسُنَ التلذّذُ برأسكِ المُضيء .

كنت أراكِ تبتسمين لي ، فيما أتحسّسُ تحت أصابعي حوار الجمر والشِّفاه . وها ذلك النّهار الكبيرُ من الجمر فيكِ ، يَعْميني .

III

« انظرْ إليّ ، انظرْ إليّ ، ركضتُ ! »

أنا قريبٌ إليكِ ، يا دوف ، أُضيئكِ . لم يعد بيننا غير هذا المصباح الحجريّ ، هذا الظلّ الضّئيلُ المُلَطَّف ، أَيدينا الّتي ينتظرها الظلّ . تبقين جامدةً ، كمثل سَمَنْدلٍ مُفاجَأ ،

وقد عاشَ اللّحظةَ الّتي تحوّل فيها إلى معرفةٍ ، الجسدُ الأكثر قرباً .

IV

هكذا بقينا مستيقظين في ذُروة ليل الكائن . استَسلمَ دَغَل .

أيّتها القطيعةُ السرّية ، بأيّ عصفورٍ من الدّم كنتِ تركضين في ظلماتِنا ؟

أيّةَ غرفةٍ كنتِ تدخلين ، حيث كان يَتفاقَمُ على زجاج النّوافذ هَوْلُ الفَجر ؟

حين عاد السّمندل لِلظّهور ، كانت الشّمس
قد انخفضت كثيراً فوق الأرض ،
وكان البلاط يتزيّنُ بهذا الجسم المشعّ .

كان قد كسّرَ هذا الرّباط الأخير
الذي هو القلب والذي نلمسه في الظلّ .

خلقَ جرحهُ في هذه الطّبيعة الصّخرية
وادياً للموت تحت سماءٍ جامدة .
وجههُ الذي كان يتّجه نحو زجاج النّوافذ
تألّقَ بهذه الأشجار العتيقةِ حيث الموت .

سيقول : **كاسّاندر** ، أيّتها اليدان الفارغتان المَرْسومتان
يا نظراً مُقْتَبساً أكثرَ انخفاضاً من كلّ نَظرٍ عاشق ،
استَقْبِلي بين يديكِ ، خلّصي في قبْضتيهما
رأسيَ الميت حيث يتهدّم الزّمن .

تخطر ليَ **الفكرةُ** أني نقيٌّ وأنّني أقيمُ
في البيت العالي الذي هربتُ منه .
آهِ ضُمّي بين أصابعيَ الكتابَ والثّمَن
لكي يكون كلّ شيءٍ بسيطاً على شواطىء موتي .

اصْقُليني ، زيّنيني . لَوِّني غيابي .
عَطِّلي هذا النّظر الذي يتجاهل اللّيل .
مُدّي عليّ طيّات صمتٍ دائم ،
أَطْفئي مع المصباحِ أرضَ النّسيان .

عدالـــة

لكن أنت ، لكن الصّحراء ! افرشي إلى أسفلَ
أغْطيتك الدّاكنة .
أدْخِلي في هذا القلب لكي لا يتوقّف
صَمتكِ ، كما لو أنّه عِلّةٌ عجيبة .

تعالي . هنا تنقطعُ فكرةٌ ،
هنا بلادٌ جميلة لم تَعُدْ لها طريق .
تَقدّمي على ضِفّةِ هذا الفجر المتجمّد
التي تقاسمكِ إيّاه شمسٌ عدوّة .

وغَنّي . تبكين مرّتين ما تبكينه
إن جرؤتِ على الغناء برفضٍ كبير .
ابتسمي وغَنّي . يحتاج إلى أن تظلّي
ضوءاً قائماً على مياه الشيء الذي كان .

سآخذ بيديّ وجهكِ الميت . سأمدّده في بَرْده . سأصنع بيديّ
لجسمكِ الجامد ، زينةَ المَوتى الباطلة .
سيكون بيت النّبات الزّجاجيُّ سُكْناكِ .
ستنوّمين قلبكِ
على المائدة المنصوبةِ في ضوءٍ آخر .
سيَتشْعل وجهكِ شارداً عبْرَ الأغصان .

سيكون **دوڤ** اسمكِ بعيداً بين الحجارة
دوڤ السّوداء العميقة ،
الماء السّفليّ الذي لا يُقهر حيث يضيع الجهد .

حقيقة

هكذا حتى الموت ، وجهين مجتمعين ،
حركات قلبٍ خرْقاء فوق الجسم المُستعاد ،
والذي تموتُ فوقه ، حقيقةٌ مطلقةٌ ،
ذلك الجسم المتروك ليديكَ الواهنتين .

ستكون رائحة الدّم هذا الملكَ الذي كنتَ تبحثُ عنه ،
إنه ملكٌ بسيط يشعّ فوق بيت النّباتِ الزّجاجيّ .
ستَلْتَفتُ الشّمسُ ، وباحتضارها الحيّ
ستضيء المكانَ حيث تكشّفَ كلّ شيء .

أخذتَ مصباحاً وها أنتَ تفتحُ الباب
ماذا يُجدي المصباحُ ، السّماء تُمطر ، النّهارُ يُشرق .

مكان حقيقي

لِيُهيّأْ موضعٌ لهذا الذي يقترب ،
إنه شخصٌ بَرْدانٌ ولا بيت له .

شخصٌ يغريه ضجيجُ مصباحٍ
تُغريه عتبةٌ مُضاءَةٌ لبيتٍ واحد .

ولئن ظَلّ مُرْهقاً من التّعب والقلق
فلْتُكرّر من أجله كلمات الشّفاء .

ماذا يلزم لهذا القلب الذي لم يكن إلاّ صمتاً
غير الكلمات التي تكون الإشارة والموعظة ،

تكون مثلَ نارٍ ضئيلة تفاجىء ليلاً ،
ومائدةٍ منتظرة في بيتٍ فقير ؟

مُصَاتّي برانكاشي

سِراجُ ليلٍ في كانون الثاني على البلاط ،
مثلما قلنا لن يموتَ كلّ شيء !
قَبْلاً كنت أكثر سَمْعاً في ظِلٍّ مُشابهٍ
لِخُطْوةِ المساء الذي يَهبط نحو البحر .

لعلّ ما أقبض عليه مشدوداً ليس إلاّ ظِلاً ،
لكن اعرفي أن تميّزي فيه وجهاً أبديّاً .
هكذا سَلكنا نحو جدرانيّاتٍ داكنة
الطّريقَ الخاطئة في شوارع الشّتاء الملوّثة .

مكان المعركة

I

ها هو فارس الحدادِ مهزوم .
ها أنا ، فيما كان يحرس نبعاً ، أستيقظ
في هديرِ المياه ، وبفضل الشجر
حلماً يتواصَل .

يصمت . وجهه هو ما أبحث عنه
أخاً ميتاً ، في الينابيع كلّها أو الشّواطىء الصخريّة .
وجهَ ليلٍ مغلوبٍ ، ينحني
على فجر الكتفِ المزّقة .

يصمت . ماذا يقدر أن يقول في نهاية المعركة
ذلك الذي غلبَه الكلامُ الحاسِم ؟
يدير إلى الأرض وجهَهُ المُعَرّى
الموتُ هو صراخهُ الوحيدُ ، هدوءُه الحَقّ .

II

لكن هل يبكي ينبوعاً أكثرَ
عمقاً ، وهل يُزْهِرُ دَهْلِيةَ مَوتى
في ساحة المياه التّرابيّة لتشرين الثاني
التي تُطلِقُ إلينا صخبَ العالم الميت ؟

يُخيّلُ إليّ ، منحنياً على الفجر الصّعب
لهذا النّهار المَعْزُوّ لي والذي استْعدتُه ،
أنّني أسمع نحيبَ الحضور الأبديّ
لِشيطانيَ الخفيّ الذي لم يُدفَنْ أبداً .

آهِ ستظهر ثانيةً ، يا شاطىء قوّتي !
لكن ، ليكن ذلك رغمَ هذا النّهار الذي يقودُني .
انتهيتِ ، أيّتها الظّلال . إن كان على الظلّ أن يعود
فسوف يعودُ في اللّيل وباللّيل .

مكان السّمندل

يَتجمدُ السّمندَلُ المفاجأُ
ويتصنّعُ الموت .
تلك هي الخطوة الأولى من الوعي في الحجر ،
الأسطورةُ الأكثر نقاءً
نارٌ عظيمةٌ مُخْتَرقَةٌ هيَ فكرٌ .

كان السّمندل في مُنتصَف علوّ
الجدار ، في ضوء نوافذنا .
لم تكن نظرته إلاّ حجراً
لكن كنتُ أرى قلبه يخفق أبديّاً .

آه يا شريكي وفكرتي ، رمزاً .
لكلّ ما هو نقيّ ،
كم أحبّ من يأسرَ هكذا في صمته
قوّة الفرح الوحيدة .

كم أحبّ من يَتطابَقُ مع الكواكب
بالكتلة الهامدة من جسمه كلّه ،
كم أحبّ من ينتظر ساعةَ انتصاره
ويَحبسُ نَفَسَهُ ويَتَشبّثُ بالأرض .

المكان الحقيقيّ للأيّل

أَيّلٌ أخيرٌ يضيعُ
بين الشّجر ،
سَيُدوّي الرّمل
بخطواتِ آتين غامضين .

ستنسكب خمرةِ النّهار الآفلِ
على البلاط ،
في البيت الذي يخترّقه
ضَجيج أصواتٍ .

الأيّل الذي ظُنّ ضامِراً
يهرب فجأةً .
أَحدسُ أنّ هذا النّهارَ جَعل
اقتفاءكم بلا جَدْوى .

اخْتَرَقَ النّهارُ المساء ، وسوف
يغلبُ اللّيلَ الأليف .
يا بأسَنا ، يا مَجدَنا ، هل تقدران
أن تثقبا سُورَ الموتى ؟

سائدةً أمسِ الصّحراء

HIER RÉGNANT DÉSERT

(1958)

قالت ديوتيما : تريد عالماً ، لهذا تملك
كلّ شيء ، ولا تملك أيّ شيء .

هيبريون

وعيد الشاهد

I

ماذا كنتَ تريد أن ترفعَ فوق هذه الطّاولة
إن لم يكن نارَ موتِنا المزدوجة ؟
خِفْتُ ، هدمت في هذا العالم الطاولة
الحمراء العارية حيث تتجلّى الرّيح الموات .

ثم شيّخْت . خارجاً ، أوقفت حقيقةُ
الكلام وحقيقة الرّيح صراعَهما .
ابتعدت النّار الّتي كانت كنيستي
لم أعد خائفاً ، لا أنام .

II

انظرْ ، جميع الطّرق الّتي كنتَ تسلكها تَنْغَلِق ،
لم تعد معطاةً لكَ حتّى هذه المُهلة
لكي تذهبَ ولو ضائعاً . الأرض الّتي تتوارَى
هي وقع خطواتكَ الّتي لم تعد تتقدّم .

لماذا تركتَ العوسجَ يغطّي
صمتاً عالياً حيث أتيت ؟
تسهر النّارُ صحراءَ في حديقة الذّاكرة
وأنتَ ، أيّها الظلّ في الظلّ ، أين أنتَ ، من أنت ؟

III

لم تعد تجيء إلى هذه الحديقة ،
طرقُ العذاب والوحدة تمّحي ،
وتدلّ الأعشابُ على وجهكَ الميت .

لم يعد يهمّك أن تُخبّأ .
في الحجرِ الكنيسةُ القاتمة ، وفي الأشجار
الوجهُ المبهورُ لشمسٍ أكثر احمراراً ،

يكفيك أن تموت طويلاً
كما في النوم ،
لم تعد تحبّ حتى الظلّ الذي يُلازمك .

١٧

أنتَ الآن وحيدٌ رغمَ هذه النّجوم ،
بعيدٌ عنك المركز وقريبٌ إليك ،
سِرتَ ، تستطيع أن تسير ، ثمّ لا شيء يتغيّر ،
دائماً اللّيلُ نفسه الذي لا يكتمل .

وانظرْ ، لقد فُصِلتَ عن نفسك ،
دائماً ، هذه الصّرخة نفسها ، لكنّك لا تسمعها ،
ها أنتَ من يموت ، أنتَ الذي لم يعد يكابد العذاب ،
هل ضِعت ، أنتَ الذي لا يبحث أبداً ؟

٧

تهدأ الرّيحُ سيّدةُ النّحيبِ الأكثر شيخوخةً ،
هل سأكون الأخيرَ الذي يتسلّح من أجل الموتى ؟
لم تعد النّار إلا ذكرى ورماداً
وإلاّ صوتَ جناحٍ مُطبَقٍ ، وصخَب وجهٍ ميت .

أترضى ألاّ تحبّ إلاّ حديد ماءٍ رماديّ
حين يجيء ملاكُ ليلك ويقفل المرفأ
ويضيّع في مائه الرّاكد
الأشعّة الأخيرة المأسورة في الجناح الميت ؟

آه يكفيك الوجع مِن كلامي القاسي
ولأجلكَ سأغلب النّعاس والموت ،
لأجلك سأدعو في الشجرة التي تَتقَصَّف
اللّهبَ الذي سيكون السّفينة والمرفأ .

لأجلكَ سأرفع ناراً بلا مكانٍ ولا وَقْت ،
ريحاً تبحث عن النّار ، عن قمم الغابة الميتة ،
عن أفقٍ صوتٍ تسقط فيه النّجوم
ويسقط القمر ممزوجاً ببَلْبلةِ الموتى .

ضجيج الأصوات

هَدأَ ضجيج الأصوات الذي كان يشير إليك .
وحيدٌ أنتَ في حظيرة المراكب القاتمة .
تسيرُ فوق هذه الأرض المتحرّكة ، لكنّ لكَ
نشيداً آخرَ غير هذا الماء الرماديّ في قلبك ،

أملاً آخرَ غيرَ هذا الرّحيل المؤكّد
هذه الخطوات الكئيبة ، وهذه النّار الّتي تَتهاوَى إلى الأمام .
لا تحبّ النّهرَ ذا المياه الأرضيّة البسيطة
وطريقه القمريّة حيث تهدأ الرّيح .

خيرٌ لي ، تقول ، خيرٌ أنّني كنتُ الانهدام
العاليَ على الشّواطىء الميّتة ، لا في القصور ،
لا تحبّ غيرَ اللّيل بوصفه ليلاً ، يحملُ
المشعلَ ، مصيركَ ، مشعلَ الزّهد .

شاطىء موتٍ آخر

I

الطّائرُ الذي تخلّصَ من كونه الفينيقَ ،
يَسكن وحيداً في الشّجرة حتّى يموت .
تَغطّى بليل الجرح
لا يُحسّ بالسيف الذي يحترقُ قلبه .

بطيئاً ، يعودُ إلى مادّة الشّجرة
كالزّيت الذي بَليَ واسودّ في المصابيح ،
كمثل طرقٍ كثيرة ضائعةٍ كُنّاها .

سيصحّ ذات يوم ،
سيعرف ذات يوم أن يكون الحيوانَ الميت ،
الغيابَ ذا العُنقِ المقطوع الذي يلتهمهُ الدّم .

سيسقط في العشب ، حاضِناً فيه
أغوارَ كلّ حقيقة ،
وعلى شاطئهِ سيَضْطربُ طعم الدّم أمواجاً .

٤

يَمْتثِلُ الطائرُ ببؤسٍ عميق ،
هل هو إلاّ الصّوت الذي لا يريد أن يكذب ،
بكبريائه ، ونُزوعهِ الفِطْريّ
ألاّ يكونَ إلاّ عدماً ، سيكون نشيدَ الموتى .

سيشيخ . البلادُ ذات الأشكال العارية القاسية
ستكون المنحدرَ الآخر لهذا الصوت .
هكذا اسوّدت السّفينةُ المنعزلة حيث لا موج
في ريح الرّمال المبيدة .

سَيصمتُ . الموتُ أقلّ خطراً . سَيخطو
في لا جَدْوى الوجود خطواتِ
الظلّ الذي مزّق الحديد جناحيه .

سيعرف جيّداً أن يموت في الضّوءِ المَهيب
وسيكون هذا كلاماً باسْم ضوءٍ
أكثر سعادةً ، قائمٍ في العالم الآخر المُظلم .

III

الرّملُ هو في البدء كما سيكون
النّهايةَ المريعةَ تحت هجوم هذه الرّيح الباردة .
أين مُنتهى هذه النجوم الكثيرة ، تقول ،
لماذا نتقدّم في هذا المكان البارد ؟

ولماذا نتفوّهُ بمثل هذا الكلام الذي لا جدوى منه
فيما نسيرُ وكأنّ اللّيلَ لم يُوجَد ؟
خيرٌ أن نسير قريباً من خطّ الزّبَد
وأن نغامرَ على عتبةِ بَرْدٍ آخر .

كنّا نجيء دائماً . كانت أضواء مبكّرة
تحمل لأجلنا بعيداً مهابةَ البرد
— رويداً رويداً كان يكبر الشاطىء المرئيّ طويلاً
والمقولُ بكلماتٍ لم نكن نعرفها .

مساءً ، في سان فرنسيسكو

. . . هكذا كانت الأرضُ من رخامٍ في القاعة
المظلمة ، حيث قادكَ الأملُ الذي لا يَشفى .
كأنّها من ماءٍ هادىء حيث كانت أضواء مزدوجة
تحمل بعيداً أصوات الشموع والمساء .

مع ذلك لم تكن أيّة سفينةٍ تطلب شاطئاً ،
ولم تكن أيّة خطوةٍ تعكّر سكونَ الماء .
هكذا قلتُ لك ، هكذا هي سراباتُنا الأخرى ،
يا لَلزهو في قلوبنا ، يا للمشاعل الدائمة !

الصّيف الجميل

كانت النّار تُعاشِر أيّامنا وتُكملها
كان حديدُها يجرح الزّمنَ في كلّ فجرٍ أكثر اكفهراراً ،
كانت الرّيح تلطمُ الموت على سقوف غُرفنا ،
والبرَدُ يُواصِل تَسويرَ قلوبِنا .

كان صيفاً جميلاً باهِتاً ، مُحبطاً وقاتِماً ،
أحببتَ عذوبةَ المطر في الصّيف
وأحببتَ الموت الذي كان يُهيمن على صَيْف
البيت الصّغير بأجنحتهِ الرّماديّة المرتجفة .

تلك السّنة ، نجحتَ تقريباً في أن تُميّزَ
إشارةً سوداء دائماً أمام عينيك ، محمولةً
على الحجارةِ والرّياح ، المياه وأوراق الشّجر .

هكذا كانت سكّة المحراثِ عَضّت الأرضَ السّهلة
وأحبّت كبرياؤكَ هذا الضّوء الجديد ،
نشوة الخوف على أرض الصّيف .

غالباً في صمت وادٍ
أسمع (أشتهي أن أسمع ، لا أعرف)
جسماً يسقط بين الغصون . طويلٌ وبطيءٌ
هذا السّقوط الأعمى ؛ لا صرخةٌ
تجيء لِتقطعه ، أو لتنهيه .

آنذاكَ أفكّر في مواكب الضوء
في البلاد الّتي لا ولادةَ فيها ولا موت .

إلى فقيرٍ

ستعرف أنّه يُبقيكَ في الموقدِ الذي يكتمل ،
ستعرف أنه يكلّمك ، وفيما تحرّك
رمادَ جسمكَ ببرودة الفَجْر ،
ستعرف أنه وحيدٌ وأنّه لا يطمئنّ .

هو الذي هَدّم كثيراً ؛ الذي لم يعد يعرف
أن يميّز بين عدمهِ وصمته ،
يَراكَ ، أيّها الفجر القاسي ، تجيء في ظلامٍ
وتحترقُ طويلاً فوق صحراء الموائد .

يَنحني النّهار على نَهر الماضي
يُحاول أن يستعيد
الأسلحةَ الّتي ضاعت باكراً ،
وحُلَى الموت الطفوليّ العميق .

لا يجرؤ أن يعرف
إن كان النّهار حَقّاً
وإن كان له الحقّ أن يُحبّ هذا الكلام الصّباحيّ
الذي ثَقَبَ لأجله سُورَ النّهار .

مِشعلٌ محمولٌ في النّهار الرّمادي .
النّار تمزّق النّهار .
وشفافية اللّهب
تُنكر ، بمرارةٍ ، النّهار .

يشتعل المصباح ناحلاً
ويميل نحوك بوجهه الرماديّ ،
وفي فضاء الشجر ، يرتجف
كمثل عصفورٍ جريحٍ أثقله الموت .

ـ الزّيت المُحْبِط في مرافىء البحر الرّماديّ
هل سيحمّر بنهارٍ أخير ،
والسّفينة التي تريد الزّبَد ثم الشاطىء
هل ستظهر أخيراً تحت نجمة النّهار ؟

هل الحجر وحيدٌ بروحٍ واسعة ورماديّة
وأنت مشيت دون أن يجيء النّهار .

جسر الحديد

هناك دائماً بلا شكٍّ في نهاية كلِّ شارع طويل
حيث كنت أمشي في طفولتي ، بِركةٌ من الزّيت
مستطيلٌ من موتٍ ثقيل تحت السّماء السّوداء .

مُذّاكَ ، فَصلَ الشعر
مياهه عن المياه الأخرى ،
لم يعد يَستوقفه حسنٌ ولا لون ،
يَقلق لِلحديد واللّيل .

يُغذّي
حزناً طويلاً لشاطىءٍ ميت . جِسرٌ من الحديد
ممدودٌ نحو الشاطىء الآخر الأكثر ظلاماً
هو ذكراه الوحيدة وحبّه الوحيد الحقيقي .

الرأس المقطوع

I

كان في طرف الحديقة مَمْشى
كنت أحلم أنني أسير فيه ،
كان الموت يجيء بأزهاره العالية الذّابلة ،
كنت أحلم أنني آخذ منه هذه الباقة السّوداء .

كان في غرفتي رَفٌّ جداريّ ،
أدخل مساءً
فأرَى امرأتين بصلابة القَرْن ،
تصرخان واقفتينِ على الخشب المدهون بالأسْود .

كان درجٌ وكنت أحلمُ
أنّ كلباً ينبح وسطَ اللّيل
في هذا الفضاء حيث لا كلاب ، وكنتُ أرى
كلباً أبيض مخيفاً يخرج من الظلّ .

II

كنت أنتظر ، خائفاً ، كنتُ أترصّدها
لعلّ باباً ينفتح أخيراً
(هكذا أحياناً كان مصباحٌ
في القاعة يبقى مشتعلاً
في وَضَح النّهار ،
لم أحبَّ أبداً إلاّ هذا الشاطىء) .

أكانتِ الموت ، كانت تُشبه
مرفأً واسعاً فارغاً ، وكنت أعرف
أنّ الماضي والمستقبل سيتهدّمان
دائماً في عينيها الشّرهتين
كالبحر والرّمل على الشاطىء ،

مع ذلك سأبني فيها
المكانَ الحزينَ لنشيدٍ كنت أحمله
كالظلّ والطّين الذي كنت أصنع منه
صوراً للغياب حين كان الماء
يجيء ويمحو مرارةَ الشواطىء .

الجمال

ذلك الذي يهدمُ الكائنَ ، الجمالُ
سوف يُنكَّلُ بهِ ، سيُعذَّب على الدّولاب ،
ويُسربَلُ بالعار ، ويُجرّم ، ويُدمّى
ويصير صراخاً وليلاً ، ويُجرّد من كلّ فرح
ــ أيّها الممزّق على جميع حواجزِ ما قبلَ الفجر ،
أيّها المعبور الموطوءُ على كلّ طريق ،
سيكونُ يأسُنا العالي أن تحيا
سيكون قلبنا أن تتعذّب ، وصوتنا
أن نُذلِّكَ في دموعكَ ، أن نسمّيك
كذّابَ السّماء السّوداء وسادنَها ،
فيما رغبتُنا هي مع ذلك جسدُكَ ــ العاهةُ
وشفقتُنا هذا القلب الذي يقود إلى جميع الوحول .

المحاكمة الإلهية

I

كنتُ ذلك الذي يسير ، شُغلي َ الشّاغِلُ
ماءٌ أخيرٌ عكِر . كان الطّقس جميلاً
في الصّيف الأكثرَ صفاءً . كان الوقت ليلاً
دائماً بلا حدّ ٍ وإلى الأبد .

أقحوان الزّبد
في صلصالِ البحار ، وكانت دائماً
رائحة تشرين الثاني نفسها ، التّرابية الباهتة
حين كنت أسيرُ في حديقة الموتى السّوداء .

كان صوتٌ يطلبُ
أن يكونَ مُصَدّقاً ، ودائماً
كان ينقلب على نفسه ، ودائماً
كان يَصْنع من استنزافهِ عظمتَه وبُرهانه .

II

لا أعرفُ إن كنت منتصراً . غير أنّني قبضت
بقلبٍ كبيرٍ على السّلاح المخبّأ في الحجر .
تحدّثتُ في ليل السّلاح ، خاطرتُ
بالمعنى ، وفيما وراء المعنى ، بالعالم البارد .

بلحظةٍ أخفقَ كلّ شيء ،
لم يعد حديد الكائن الأحمرُ يثقب
رتابةَ الكلمة ،
لكنّ النّار نَهضت أخيراً ،
والسّفينة الأكثر عنفاً
دخلت إلى المرفأ .

أيّها الفجر ، يا فجر نهارٍ ثانٍ
جئتُ أخيراً إلى بيتك الملتهب
وقطعتُ هذا الخبز حيث يتدفّق الماءُ البعيد .

النّقصُ هو الذّروة

لم يكن بدٌّ من الهدم والهدم والهدم ،
كان لا بدّ للخلاص مِن هذا الثّمَن .

تهديم الوجه العاري الذي يصعد في الرّخام ،
تشويه كلّ شكلٍ وكلّ جمال .

نحبّ الكمالَ لأنّه العتبة
لكننا ننكره منذ أن نعرفه ، ننساه ميتاً ،

النّقصُ هو الذّروة .

فينيراندا (Veneranda)

المُصلّية وحيدةٌ في القاعة السُّفلى شبه المعتمة ،
لِثوبها لون انتظار الموتى ،
وهو الأزرقُ الأكثر بُهوتاً في العالم ،
مُشقّقٌ يكشف اللّون الأمغرَ في الحجارة العارية .

الطفولة وحيدة والذين يجيئون غامضون
ينحنون بمصابيحهم فوق جسمها .
أوه ، هل أنت نائمة ؟ حضوركِ الذي لا يُهدّأ يحترقُ
كمثل روحٍ في هذه الكلمات التي لا أزال أحملها إليكِ .

وحيدةٌ أنتِ ، شيّختِ في هذه الغرفة ،
تتفرّغين لأعمال الزّمن والموت .
لكن انظري ، يكفي أن يرتجف صوتٌ خافتٌ
لكي يسيلَ الفجرُ في النوافذ الزّجاجية التي عادت إلى الظهور .

صـوت

كنتُ أتعهّد ناراً في اللّيل الأكثر بساطةً ،
وأستخدم وفقاً للنّار كلماتٍ نقيّةً
كنت أسهرُ قَدَراً * صافياً وبقَدرٍ معتم
على الفتاة الأقلّ اضطراباً في شاطىء الجُدران .

كان لديّ قليلٌ من الوقت لكي أفهمَ ولكي أكون ،
كنتُ الظلّ ، وكنت أحبّ أن أحرسَ البيت ،
وكنتُ أنتظر ، كنت صَبْرَ القاعات ،
وأعرف أنّ النّار لم تكن تشتعل عبثاً . . .

* Parque إحدى إلآهات القدر في اللاتينية ، والتي تقابل Moire اليونانية ، وقد آثرت ترجمتها بالشكل المثبت . (م.م) .

فينيراندا

I

يأتي ، إنّه حركة تمثال ،
يتكلّم ، مملكته عند الموتى ،
عملاق ، وهو من نوع الحجر
الذي هو نفسه سماءُ غضب الموتى .

يأخذ . يجذب ويُبقي على وجهه
مصباحاً سيشتعلُ في بلاد الموتى ،
يحمي جسم المصلّية ، الصّغير ، الصّارخ ، الذي يتلوّى ،
من الغمّ والموت .

II

ينحني . صحراء وفقاً لرمادٍ آخر
ويداكِ تقودان جزَعَ النّار .
يصنع من يديكِ القاعة ذات النوافذ الزّجاجية الظلّية
حيث سيتمزّق زجاج النّار الدائريّ .

ينحني عليكِ . وقوراً في الجهد
وبوجهٍ رماديّ يتعبّد النّار ،
يلمس بدمه أسنان الباكية ،
الأسنان الباردة الكبيرة المفتوحة على عنف النّار .

III

يأتي ويشيخ . لأنّه ينظر إليكِ
ينظر إلى موته الذي يتجلّى فيكِ .
يحبّ هذا الملك الذي هو أنتِ أن يهدّده
انظري إليه ينام تحت أشجاركِ الكبيرة الباردة .

واثقاً ، ينام . أيّتها الشجرة المنذرةُ قليلاً
كوني رغبتكِ القلقة في ألاّ توقظيه .
– شجرة حيث بوثبةٍ مع ذلك ينشأ اللّهب ،
مائدة حيث تَسْتَولي العطيّةُ ، تُفيض العطاء ، تَسْتَنْفِد .

صـوت

يا نَبْتةَ القُرّاص ، يا صدرَ هذا الشّاطىء حيث يتكَسّر ،
أيّتها الواقفة مجمّدةً في الرّيح ،
لَوّحي بإشارة حضورِكِ ، يا خادمتي
ذات الثوب الأسود المُشَقّق .

أيّتها الحجرة الرّمادية ،
إن كان لكِ حقّاً لون الدّم ،
تَحرّكي بهذا الدّم الذي يخترقكِ ،
افتحي لي مرفأَ صراخكِ ،

لِأَجيءْ فيكِ إليه
هو الذي يَتصنّع النّوم
ورأسه مُغلقٌ عليكِ .

يَنفصل عنها ، إنه أرضٌ أخرى ،
لن يجمعَ شيءٌ هاتين الكرتين الغريبتين
حتّى هذه النّار الّتي تُقلّدُ في الموقد
النّار الكبرى الّتي تتَلألأ في العوالم المُقْفِرة .

لا طائلَ في أن يكون إنسانٌ مرّ
في الحلم ، أو قَطعَ الحديدَ الأكثرَ قِدَماً .
كان هذا اللّيل طويلاً . ودارت أعوام كثيرة
على حديقة البحار ، الدّكْناء .

طولَ اللّيل

طولَ اللّيلِ تَحرّكَ الحيوان في القاعة ،
ما هذه الطّريق التي لا تريد أن تنتهي ،
طولَ الليل بحث الزّورق عن الشاطىء ،
مَن هؤلاء الغائبون الذين يريدون العودة ،
طولَ اللّيل عرف السّيفُ الجرحَ ،
ما هذا العذاب الذي لا يعرف أن يقبض شيئاً ،
طولَ الليل انتحب الحيوان في القاعة ،
أدمى ، أنكر ضوءَ القاعات ،
ما هذا الموت الذي لن يَشْفيَ شيئاً ؟

الأرض البسيطة *

سترقد على الأرض البسيطة
مَن أكّد لك أنّها كانت لك ؟

مِن السّماء الّتي لم تتغيّر
سيبدأ الضّوء التّائهُ الصّباحَ الأبدي .

ستؤمن أنّك تنبعث في السّاعات العميقة
لِلنّار المهجورة ، النّار الّتي لم تُطفأ جيّداً .

لكنّ الملاكَ سيأتي ويخنق بيديه الرّماديتين
الأُوَارَ الذي لا نهايةَ له .

---

* العنوان من وضعنا (م.م) .

الذّاكرة

كانت الأصابع قد تَشنّجت ،
كانت تحلّ محلّ الذّاكرة ،
لَزِمَ فَضٌّ القوى الحزينة الحارسة
لِرَمْيِ الشجرةِ والبحر .

ليتَمزّقِ العصفور في الرّمالِ ، كنتَ تقول
ليكن شاطئنا ، عالياً في سمائهِ الصّباحيّة .
لكن هو ، غريق القبّة المغنيّة ،
كان يسقط باكياً في صَلصال الموتى .

ناداني الطّائرُ ، جئتُ ،
قبلتُ أن أعيشَ في القاعة
الرّديئة ، كرّرت أنّها كانت تُشْتَهى ،
استسلمتُ لضجيج الموت الذي كان يتحرّك فِيّ .

ثمّ كافحت ، دفعت الكلمات التي تُحاصرني
إلى أن تَظهرَ واضحةً على زجاج النّافذة حيث كنت بَرْداناً .
كان الطّائر يُغنّي بصوتٍ فَظّ وأَسْود
كرهتُ اللّيلَ مرّةً ثانية ،

هَرمتُ ، وإذ صِرتُ هُياماً ويقظةً حادّة ،
خلقتُ صمتاً ضِعت فيه .
— بعد ذلك سمعتُ النّشيدَ الآخر الذي يَسْتيقظ
في الغَور القاتم لنشيد الطائر الذي صمت .

أوراق الشّجر المضاءة

I

أتقول إنّه يَقف على الشّاطىء الآخر ،
أتقول إنه كان يترصّدك في نهاية النّهار ؟

كان الطّائر في شجرة الصّمت قد سيطرَ على قلوبِنا
بغنائِه الواسع البسيط النّهِم ،
كان يقودُ
الأصوات كلّها في اللّيل حيث تضيع الأصوات
بكلماتها الحقيقيّة ،
بحركة الكلمات بين أوراق الشّجر ،
لكي يستمرّ في النّداء ، لكي يُحبّ عبثاً
كلّ ما هو ضائع ،
كانت السّفينة العالية المحمّلة بالألم تجرّ
كلّ سخريةٍ بعيداً عن شاطئنا
كانت ملاكَ التخلّي عن أرض المواقد والمصابيح
والاستسلام لطعم زَبَدِ اللّيل .

II

كان الصّوتُ في الشّجر سُخريةً محضة
ابتعاداً ، موتاً
افتضاضَ صباحاتٍ بعيداً عنّا

في مكانٍ مرفوض . وكان مَرفؤُنا
مِن الصّلصال الأسود . ما مِن سفينةٍ
أبداً لَوّحت فيه بإشارة ضوء ،
كان كلّ شيءٍ يبدأ مع هذا الغناء في الفجر القاسي ،
أمَلاً يخلّص ، وفقراً .

كان هذا كما في حراسة الأرض الصّعبة
اللّحظةَ العارية ، الممزّقة
حيث نشعر أنّ الحديدَ يعثر على قَلب الظلّ
ويبتكر الموتَ تحت سماءٍ تتغيّر .

III

لكن في الشّجر
في لهَب الثمار ، الذي لمّا يُلْمَحْ ،
كان سيفُ الحمرة والزُّرقة
يحافظ بقسوةٍ على الجرح الأوّل ،
المُكابَد ، والذي نُسيَ حين جاء اللّيل .

هنا مَلاكُ الحياة الذي جاء متأخراً ،
كمثل ثوبٍ في الشجر يتمزّق ،
كانت ساقاه الورقيّتان تحت المصابيح
تظهران بالمادّة والحركة واللّيل .

IV

إنّه الأرضُ ، هي الغامضة ، حيث ينبغي أن تعيش ،
لن تُنكر حجرَ الإقامة ،
ينبغي لِظلّك أن ينبسطَ قربَ الظّلال الفانية
فوق البلاط حيث يأتي النّهار ولا يأتي .

إنّه أرض الفجر . حيث يغطّي ظِلٌ جوهريٌ
كلّ ضوءٍ وكلّ حقيقة .
لكن حتى في المنفى أحببنا الأرض
ما دام صحيحاً ألاّ شيء يقدر أن يغلب الحبّ .

وَهَنُ النّار

اشتعلت النّار ، هنا قَدَرُ الغُصون ،
ستُلامِس قلبَها الحصويَّ البارد ،
هي التي كانت تجيء إلى مَرْفأ كلّ شيء وليد ،
سترتاح على شُطآن المادّة .

ستشتعل ، بخسرانٍ محض ، تعرف ذلك
سيظهر فضاء ترابٍ عارٍ تحت النّار ،
ستنتشرُ نجمة ترابٍ أسودَ تحت النّار ،
ستضيء دروبَنا نجمةَ الموت .

ستشيخُ . المخاضةُ حيث تتكاثفُ الظّلال
لن تتلألأَ تحت خطوتِها ، إلاّ ساعةً .
اخترقت الفكرةُ أيضاً المادّة التي تستخدمها
وتُنكر هذا الزّمنَ الذي لا تُخلّصه .

ستسمع
أخيراً صرخة الطّائر هذه كمثل سيْفٍ
بعيداً ، فوق جانب الجبَل ،
وستعرف أنّ إشارةً نُقِشت
على مركز الحراسة ، في نقطة الأمل والضّوء .

ستظهر
في فِناء صرخة الطّائر المترنّح ،
هنا ينتهي الانتظار ،
هنا في العشب القديم ستراه يلمعُ — ذلك
السّيف العاري الذي ينبغي أن تأخذه .

إلى صوت كاتلين فيرّييه *

كانت العذوبة والسّخرية تجتمعان
لأجل وداعٍ من البلّور والضّباب ،
وضربات الحديد البالغة تحدث ما يشبه الصّمت ،
وكان ضوء السّيف قد احتجب .

أحتفل بالصّوت الذي يمتزج بلونٍ رماديّ
والذي يتلعثم في أقاصي نشيد ضاع
كما لو أنّه ، فيما وراء كلّ شكلٍ صافٍ ،
ارتجف نشيدٌ آخر وحيدٌ مُطلق .

يَا للضّوء ويا لعدَم الضوء ، يا للدّموع
الباسمةِ الأكثرِ علوّاً من القلق أو الأمل ،
يَا للمُبجع ، المكان الحقيقيّ في الماء القاتم غير الحقيقيّ ،
يا لليَنبوع ، حين خيّم المساء العميق .

يبدو أنّك تعرفين الشاطئين ،
الفرح الأقصى والألم الأقصى .
هنالك ، بين هذا القصب الرّماديّ في الضوء
يبدو أنّك تغرفين من الأبديّ .

---

* Kathleen Ferrier

أرض مطلع الفجر

يعبرُ الفجر العتَبة ، الرّيحُ هدأت ،
وَانْزوت النّار في دير الظّلال .

يا أرض الأفواه الباردة ، يا من تُعلن
أقدم حدادٍ بأودية حجرٍ سريّة ،
سيزدهر الفجر في عينيكِ النّاعستين ،
اكشفي لي عن وجهكِ مُلطّخاً — أنتِ المصلّية .

الوادي

كان سَيفٌ يَنخرطُ
في مادّة الحجر .
كانت القبضة صدئةً ، وكان الحديد القديم
قد خَضّب بالأحمر جذعَ الحجر الرّماديّ .
وكنت تعرف أنّ عليك أن تُمسكَ
باليدين غياباً كثيراً ، وتنتزعَ
اللّهبَ الدّاكن من غلافه اللّيليّ .
كانت كلمات منقوشةً في دم الحجر ،
تُفصح عن هذه الطرّيق : المعرفة ثم الموت ،

ادخل في وادي الغياب ، ابتعدْ
هنا بين الحصى يقوم المرفأ .
سَيَدُلّكَ عليه ، في الشاطىء الجديد
غناء عصفور .

أبديّة النار

يكلّم الفينيقُ النّار الّتي هي قدَرٌ
ومشهدٌ نيّرٌ يلقي ظلاله ،
يقول : أنا من تنتظرين ،
أجيء لكي أضيعَ في بلادكِ المهيبة .

ينظر إلى النّار كيف تجيء
كيف تتأسّسُ في الرّوح الغامضة
وحين يظهر الفجر لزجاج النّوافذ ، كيف
تخمد النّار وتذهب لِتنامَ أكثر انخفاضاً من نار .

يُغذّيها بالصمت . يأملُ
أنّ كلّ ثنيّةٍ من صمتٍ أبديّ
إذ تستقرّ فوقها كمثل الرّمل
سوف تزيد خلودَها .

ستعرفُ أنّ طائراً تكلّم أكثرَ علوّاً
من كلّ شجرة حقيقيّة ، أكثرَ بساطةً
مِن كلّ صوتٍ هنا بين أغصاننا

وستجهد لكي تغادرَ مرفأَ
هذه الأشجار ، صرخاتك القديمة ــ أشجار الحجر أو الرّماد .

ستسيرُ
ستكون خُطاكَ إلى أمد طويلٍ ، اللّيلَ والأرض العارية ،

وسيبتعدُ هو مغنيّاً من شاطىءٍ إلى شاطىء .

إلى أرضٍ فَجْريّة

أيّها الفجرُ ، يابْنَ الدموعِ ، أعدِ
الغرفةَ إلى سلامِها الرّماديّ ،
والقلبَ إلى نظامه . كان أكثرُ من ليلٍ
يسأل هذه النّارَ أن تكتملَ وتزول ،
يلزمنا أن نسهرَ قربَ الوجه الميت .
لم يكد يتغيّر . . . هل ستدخلُ سفينة المصابيح
إلى المرفأ الذي طلبته ،
واللّهبُ الذي ترمّدَ على الموائد هنا
هل سيكبرُ في أمكنةٍ أخرى في ضياءٍ آخر ؟
أيّها الفجرُ ، ارفعْ ، خُذِ الوجه بلا ظلّ
لوّنْ رويداً رويداً الزّمنَ المُستأنَف .

صـوت

أَصْغِ إليّ ، أحيا مجدّداً في هذه الغابات
تحت أوراق الذاكرة
حيث أعبر خضراءَ ،
ابْتسامةً متكاتّسةً من نباتاتٍ قديمةٍ على الأرض
عِرْقاً للنّهار فَحميّاً .

أَصْغِ إليّ ، أحيا من جديد ، آخذكَ
إلى بستان الحضور
المهجور مساءً ، والمغطّى بالظّلال ،
الصّالحِ لسكناك في الحبّ الجديد .

أمس في سيادة الصّحراء ، كنتُ ورقةً وحشيّة
وحرّةً في الموت ،
لكنّ الزّمنَ كان يُنْضِجُ ، كمثل نَواح أوديةٍ ضيّقةٍ ،
جُرحَ الماء في حجارة النّهار .

فينير اقلدا

آه ، أيّة نارٍ في الخُبز المقطوع ، أيّ فجرٍ
نقيّ في الكواكب الواهنة !
أَنْظرُ إلى النّهار يأتي بين الحجارة
وحيدةٌ أنتِ في بياضه تلبسين السّواد .

ما أكثر الكواكب التي كانت ستجتازُ
الأرضَ التي يمكن إنكارُها دائماً ،
أمّا أنت فقد احتفظت بها واضحةً ـــ
تلك الحرّية القديمة .

هل أنت نباتيّةٌ ، لكِ
من الأشجار العظيمة قوّةُ
أن تكوني هنا مجبرةً ، لكن حرّةً
بين الرّياح الأكثر علوّاً .

وكمثل الولادة النّافدةِ الصّبر ، التي
تُشقّق الأرضَ اليابسة ،
تُنكرين بنظرتكِ
ثِقل صلصالِ النّجوم .

هل تذكر ، وقد اطْمأْننتَ الآن ،
زَمناً كنّا فيه نكافح بأسلحةٍ عظيمة ،
ماذا بقيَ في قلوبنا غير الرّغبة اللاّ نهائيّة
في أن نضيع ؟

لم نكن اجتزنا
الحاجزَ الوحيدَ في المساء أو حكمة الحياة
الّتي هي في رَتابة الموتى والنّباتات الّتي تزيّن قبورهم .

لم نكن أحببنا
نارَ اللّيل الطويل ، الصّبرَ الذي لا يَملّ
والذي يحوّل كلّ غصن ميت إلى فجرٍ من أجلنا .

البلاد المكتشفة

النّجمةُ على العتَبة . الرّيح محفوظةٌ
في أيْدٍ ثابتة .
كان الكلام والرّيحُ في صراعٍ طويل ،
ثمّ فجأةً كان صمت الرّيح ، هذا .

لم تكن البلاد المكتشفة إلاّ حجراً رماديّاً .
بعيداً جدّاً ، في الأسفل كان يرقد وميض نَهْرٍ باطل .
لكنّ أمطارَ اللّيل على الأرض المفاجأة
أيقظت الأوارَ الذي تسميه الزّمن .

دِلْف * اليوم الثاني

هنا يرضى الصّوت القلِقُ أن يحبّ
الحجرَ البسيط ،
البلاط الذي يسترقّه الزّمنُ ويحرّره ،
والزّيتونةَ التي لقوّتها طعم حَجرٍ بلا طين .

الخطوة في مكانها الصّحيح . الصّوت القلِقُ
سعيدٌ تحت صخور الصّمت ،
واللاّ نهايةُ ، المَرَدُّ غير المحدّد
للجلاجلِ ، شاطئٌ أو موت . لم تكن من أيّ رُعْبٍ
هَاويتُكِ النيّرة ، يا دِلْفَ اليوم الثاني .

* Delphes

هنا ، دائماً هنا

هنا ، في المكان النيّر . رحلَ الفجرُ
وها هو نهار الرّغبات التي يمكن قولها .
لم يَبْقَ مِن أوهام نشيدٍ في حلمك
إلاّ هذا التلألؤ الحجريّ الآتي .

هنا ، وحتى المساء . ستدور
وردةُ الظلّ على الجدران . ستسقطُ
أوراق وردة السّاعات بلا صوت . سيقود البلاط النيّر
كما يشتهي هذه الخطوات المأخوذة بالنّهار .

هنا ، دائماً هنا ، حجراً إلى حجر
بُنيتِ البلاد التي قاتتْها الذّكرى .
يكاد ضجيجُ الثّمار البسيطة التي تسقط
ألاّ يُثيرَ فيك الزّمنَ الذي يحمل الشّفاء .

لا يزال صوت ما يهدم
يُدوّي في شجرة الحجر ،
لا تزال الخطوةُ التي نخُوطِر بها على الباب
تَقدر أن تغلبَ اللّيل .

مِن أين يَجيءُ **الأوديبُ** (١) الذي يعبر ؟
انظرْ ، مع ذلك ، رَبح .
منذ أن يجيب ، تتبدّد
حكمةٌ جامدة .

يبقى **أبو الهول** (٢) الصّامتُ
في رَمْل **المثال** (٣) .
لكنّ **أبا الهول** يتكلّم ويَرْزح .

لماذا الكلمات ؟ لِلشّقة
ولكي تخترق النّار من جديد
صوتَ **أوديب** المُخلّص .

---

(١) œudipe
(٢) Le Sphinx
(٣) Idée

الصوت نفسه ، دائماً

إنني كالخبز الذي ستقطعه
كالنّار التي ستَشْعلها ، كالماء الطّهُور
الذي سيُرافقكَ في أرض الموتى .

كالزّبَد
الذي أنضجَ لأجلكَ الضّوء والمرفأ .
كطائر المساء ، الذي يمحو الشّواطىء
كريح المساء أكثر عنفاً ، بَغْتةً ، وأكثر برودة .

طائر الأنقاض

مِن الأنقاض يتخلّص طائر الموت ،
يَبني عشّه في الحجر الرّمادي في الشّمس ،
تجاوزَ كلّ ألمٍ ، كلّ ذاكرة
ولم يعد يعرف ما يكون الغَدُ في الأبديّ .

إخلاص

DÉVOTION

(1959)

I

إلى نبات القُرّاص وإلى الحجارة .

إلى « الرياضيّات الشاقّة» . إلى القطارات الرّديئة الإضاءة كلُ مساء . إلى شوارع الثلج تحت نجمةٍ بلا حدّ .

كنتُ أسيرُ ، كنت أضيع . وكانت الكلمات تعثر بمشقةٍ على طريقها في الصّمت الرّهيب . — إلى الكلمات الصّابرة والمخلّصة .

II

إلى « عذراء المساء » . إلى الطّاولة الكبيرة الحجريّة فوق الشّواطىء السّعيدة . إلى خطوات اتّحدت ، ثم انفصلت .

إلى شتاء أولترارنو (١) . إلى الثلج وإلى خطواتٍ كثيرة . إلى مُصلّى برانكاتشي (٢) حين يكون الوقت ليلاً .

---

(١) Oltr'Arno

(٢) Brancacci

III

إلى الكنائس في الجُزُر .

إلى جالاَ بلاسيديا (١) . إلى تماثيلَ في العشب ؛ ولعلّها مثلي ، بلا وجه .

إلى بابٍ يسدّه قرميد بلون الدّم على واجهتكِ الرّمادية ، يا كاتدرائية فالآدوليد (٢) . إلى دوائرَ كبيرة من الحجر . إلى خطْوٍ مُثقَلٍ بترابٍ ميت أسْود .

إلى سانت ــ مارت داغلييه (٣) ، في الكانافيز (٤) . القرميد الأحمر الذي شاخ معلناً الفرحَ الباروقيّ . إلى قصرٍ مقفر ومغلقٍ بين الأشجار .

(إلى قصور هذا العالم جميعاً ، من أجل الاستقبال الذي تقدّمه إلى اللّيل) .

إلى منزلي في أورباان (٥) ، بين العدد واللّيل .

إلى سانت ــ إيف دولا ساجيسّ (٦) .

(١) Galla Placidia
(٢) Valladolid
(٣) Sainte - Marthe d'Aglié
(٤) Canavese
(٥) Urbin
(٦) Saint-Yves de la Sagesse.

إلى دلف حيث يمكن الموت .

إلى مدينة طائرات الورق والبيوت الزجاجية الكبيرة حيث تنعكس السّماء .

إلى الرسّامين في مدرسة ريميني (١) . أردتُ أن أكون مؤرّخاً ، خوفاً على مجدكم . أن أمحوَ التّاريخ شغفاً بِمُطْلَقِكم .

IV

ودائماً إلى أرصفةٍ ليليّة ، إلى حاناتٍ ، إلى صوتٍ يقول أنا المصباحُ ، أنا الزّيت .

إلى هذا الصّوت الذي تَستَنفده حمّى جوهريّة . إلى الجذع الرماديّ لِشجر القَيْقَب إلى رقصٍ ما . إلى تلك القاعتين العاديتّين مِن أجل إبقاء الآلهة بيننا .

---

(١) Rimini.

حجر مكتوب

PIERRE ÉCRITE

(1965)

thou mettest with things dying;
I with things new born *.
(Le Conte d'hiver)

* « أنت تلتقي بالأشياء الميتة ،
وأنا ألتقي بالأشياء الوليدة .»
(حكاية الشتاء).

صيف اللّيل

1

يُخيّل إليّ ، هذا المساء ،
أنّ السّماءَ المكوكَبة ، إذْ تتّسع ،
تقترب إلينا؛ وأنّ اللّيل ،
وراء نيران كثيرة ، أقلّ ظلاماً .

وأوراق الشجر أيضاً تتلألأ تحت أوراق الشّجر ،
الأخضر ، ولون الثمار الناضجة ، البرتقاليّ ، تنامَى ،
مصباحَ ملاكٍ قريب ؛ نبضَ
نورٍ مُخبّأً يَستحوذُ على الشجرة الكونية .

يُخيّل إليّ ، هذا المساء ،
أنّنا دخلنا في الحديقة التي أغْلقَ
الملاكُ أبوابَها دونَ عودة .

II

سفينةُ صيفٍ ،
وأنتِ كأنّكِ في صدرها ، وكأنّ الزّمن يكتمل ،
تنشرين أنسجةً مرسومةً وتتحدّثين بصوتٍ خافت .
في حلم أيّار ،

كانت الأبدية تَصعد بين ثمار الشجرة
وكنت أقدّم لكِ الثّمرةَ التي تجعل الشّجرةَ بلا حَدّ
دونَ هَمٍّ ولا موت ، ثمرةَ عالمٍ مشترَك .

بعيداً في صحراء الزّبد يجول الموتى ،
لم تعد ثمّة صحراء لأنّ كلّ شيءٍ فينا
ولم يعد ثمّة موت لأنّ شَفَتيّ تلامسان
ماءَ تشابُهٍ مُبعثَرٍ على البحر .

يا كفايةَ الصّيف ، ملكَتُكِ نقيّةٌ
كالماء الذي غيّرته النّجمة ، كضجيج
زَبدٍ تحت خطواتِنا حيث يعلو بياض الرّمل
ليباركَ جِسمينا غير المُضائيّن .

III

الحركَةُ
بَدت لنا أنّها الخطَأ ، وكنّا نسير
في الشّباتِ كما تحت السّفينة
تتحرّك أوراق الموتى ولا تَتحرّك .

كنتُ أسمّيكِ قائدتي
سعيدةً ، لا مباليةً ، تقودين
بعينين نصف مُغمضتين ، سفينةَ الحياة
وتحلمين كما تحلم ، بوصفها سلامَها العميق ،
وتتقوّس على المقدّمة حيث يخفق الحبّ العتيق .

باسمةً ، أولى ، شاحبة ،
انعكاساً أبديّاً لنجمةٍ ثابتةٍ
في الحركة الفانية .
محبوبةً ، في أوراق البحر .

IV

أرضٌ كأنّها مُهيّأة ،
انظري ،
إنّها طليعتكِ
مبقّعةٌ بالحمرة .

النّجمةُ ، الماء ، النّومُ
أَوْهنت هذه الكتفَ العارية
التي ارتعشت وها هي تنحني
على الشّرق حيث يتجمّد القلب .

هَيْمنَ الزّيتُ المتأمّل
على جسمها ذي الظّلال المتحرّكة ،
ومع ذلك تمدّ رَقبتَها
كما تُوزَن روح الموتى .

V

ها هي تقريباً اللّحظة
حيث لا نهارٌ ولا ليلٌ ، ما دامت النّجمة
كبرت لكي تباركَ هذا الجسمَ الأسمرَ ، الباسم .
غيرَ المحدود ، ماءٌ تتحرّك بلا وهم .

ستحلّ هذه الأيدي الواهية
عقدةَ الأحلام ، الحزينة .
سيرتاح الضّياء المَحْميّ
على طاولة المياه .

تحبّ النّجمة الزّبدَ ، وسوف تحترق
في هذا الثوب الرّماديّ .

VI

طويلاً كان الصّيف . كانت نجمةٌ ثابتة
تسيطر على الشموس الدّائرة . كان صيف اللّيل
يحمل صيف النّهار بيدين من الضّوء
وكنّا نتحدّث بصوتٍ خافت ، بين أوراق اللّيل .

النجمة لا مبالية ؛ كذلك مقدّمة السّفينة ؛ والطّريق
النيّرة بينهما في مياهٍ وسماواتٍ هادئة .
كان كلّ موجودٍ يتحرّك سفينةً تدور
وتنزلق ، ولا تعرف روحَها في اللّيل .

VII

ألم يكن علينا أن نعبرَ الصّيفَ ، كمثل محيطٍ
واسع جامد ، وأنا البسيطُ ، نائمٌ
فوق عيني مقدّمة السّفينة وفمها وروحها ،
عاشقاً الصّيف ، متشرّباً عينيكِ بلا ذكريات ،

ألم أكن الحلمَ ذا الحَدقات الغائبة
الذي يأخذ ولا يأخذ ، ولا يريد أن يحتفظ
مِن لونكِ الصّيفي إلاّ بزرقة حجرٍ آخر
مِن أجل صيفٍ أكبر ، حيث لا شيء يقدر أن ينتهي ؟

VIII

لكنّ كتفكِ تتمزّق في الأشجار ،
سماءً مُكَوكبة ، وفمك يبحث من جديد
عن الأنهار التي تتنفّس الأرضَ لكي يحيا
بيننا ليلُكِ المهموم المتشوّق .

يا صورتَنا أيضاً ،
تحملين قربَ القلب الجرحَ نفسه .
الضّوء نفسه حيث يتحرّك الحديد نفسهُ .

انقسمي ، يا مَن أنتِ الغيابُ ومدّهُ وجَزرهُ .
استقبلينا ، نحن الذين لنا نكهة ثمارٍ تسقط ،
امزجينا بالزّبد على شواطئكِ الفارغة
مع غابات حطام الموت ،

شجرةً بأغصانٍ ليليّة مزدوجة ، مزدوجة دائماً .

IX

يا مياه النّائم ، يا شجرةَ الغياب ، يا ساعاتٍ بلا شواطىء ،
إنّ ليلاً ما سينتهي في أبديّتكِ .
كيف سنسمّي هذا اليوم الآخر ، يا نفسي ،
هذا الاحمرارَ الأسفل الممزوجَ بِرَمْلٍ أسود ؟

تضطرب الأضواء في مياه النّائم
تنشأ لغةٌ تشارك النّجومَ اشتباكَها النيّر
في الزّبد .
وها هي اليقظة تقريباً ، والآن الذكرى .

خنجر

« انظرْ إليّ
هنالك ، في هذا الفضاء الذي تعبره
ماءٌ سريعةٌ وسوداء . . . »

كنت أبتكركِ
تحت عَقْدِ مرآةٍ عاصفة كانت تأخذ
الجزء الصّغير من حمرةٍ فيكِ ، لا تُجزّأ ،
وتؤجّجه « هنالك » في موج الموت .

الحديقة

كانت النّجوم تُقبّب جدرانَ الحديقة العالية
كثمار شجرةٍ فيما وراءها ، لكنّ حجارة
المكان الفاني كانت تحمل في زبد الشّجرة
ما يشبه ظِلاًّ لصدر السّفينة وما يشبه الذّكرى .

أيّتها النجوم وأنتِ ، يا حُوّارَى الطّريق النقيّة
كنتِ تَشحبين ، وتأخذين منا الحديقةَ الحقيقيّة ،
جميعَ طرق السّماء المكوكَبة إذ تلقي ظِلاً
على هذا النشيد الغريق ؛ على طريقنا الغامضة .

طوّى الحلم في صناديقه
أنسجتَه المرسومة ، وظلِ
هذا الوجه الذي يُبقّعه
صلصال الموتى ، الأحمر .

لم تريدي أن تمسكي
بهذه الأيدي الضيّقة التي رسمت
إشارة الوحدة
على منحدرات جسمٍ ، بلونِ التّراب الصّلصاليّ .

تَنْحني الرّقبة القريبةُ
كماءٍ تضيعُ
في احمرار ماءٍ قاتم ،
على الشّاطىء حيث يتلألأ الموت .

الزبد ، صخرة الشاطىء

أيـّتها الوحدة التي لا يرتقى إليها ، ما أكثر الطرّق !
أيّها الثوب الأحمر ، ما أكثر الساعات القريبة تحت الأشجار !
لكن ، وداعاً في هذا الفجر البارد ، يا مائيَ الصّافية ،
وداعاً ، رغم الصّراخ والكتف والنّوم .

أصغي ، لم تعد لازمةً هذه الأيدي التي تستعيد نفسـَها
كالزّبد والصّخر أبديّاً ،
ولا هذه العيون التي تستدير نحو الظلّ
مؤثرةً النّوم الذي لا يزال مشتركاً .

لم يعد لازماً أن نحاولَ الجمع بين الصّلاة والصّوت ،
الأمل واللّيل ، المرفأ ورغباتِ الهاوية .
انظري ، ليس موزار من يُصارع في روحكِ ،
ضدّ سلاح الموت ، الذي لا شكل له ، بل الصّنْج .

وداعاً ، يا وجهاً في أيّار .
زرقة السّماء قاتمةٌ هنا ، اليوم .
سيف النّجمة اللّامبالية
يجرح مرّةً ثانيةً أرضَ النائم .

المصباح ، النائم

I

لم أكن أعرف أن أنامَ دونكِ ، لم أكن أجرؤ
أن أخاطرَ دونكِ على الدّرجات الهابطة .
اكتشفتُ بعدَ ذلك أنّ هذه الأرض
ذات الطّرق التي تؤدّي إلى الموت ، حلمٌ آخر .

آنذاكَ شئتكِ عند وسادة حُمّاي
ألاّ تُوجَدي ، أن تكوني أكثر سواداً من ليالٍ كثيرة ،
وحين كنت أتحدّث عالياً في العالم الباطل ،
كنتِ معي في طرُق النّوم البالغ الرّحابة .

كان الإلهُ الملحّ فيَّ هذه الشواطىء
التي كنتُ أضيئُها بالزّيت التّائه ، وكنتِ تنقذين
خطُواتي ، ليلاً ليلاً ، من الهاوية التي تحاصرني ،
وفجريَ ، ليلاً ليلاً ، أيّها الحبّ الذي لا يكتمل .

II

— كنتُ أنحني عليكِ ، يا وادياً كثير الحجارة ،
أُصغي إلى ضوضاء راحتكِ المهيبة
ألمح في الأسفل في الظلّ الذي يغطّيكِ
المكان الحزينَ حيث ابيضّ زبدُ النّوم .

كنت أسمعكِ تحلمين ، أيّتها الرّتيبة الصّماء ،
وأحياناً بصخرةٍ مكسورةٍ غير مرئيّة
كما يغيبُ صوتكِ ، فاتِحاً بين ظلاله
مجرى انتظارٍ مهموسٍ ضيّق !

صحيحٌ ، هناك عالياً في حدائق الطّلاء الخزفيّ ،
طاووسٌ كافرٌ يكبر بأضواء فانية .
لكن أنتِ يكفيكِ لهبي الذي يتحرّك ،
تَسكنين ليلَ جملةٍ منحنية .

من أنتِ ؟ لا أعرف منكِ غيرَ النّذير
وسرعةَ طقسٍ غير مكتمل ، في صوتكِ .
تشاركين الغامضَ في ذروة الطّاولة ،
وما أشدّ عُريَ يديكِ ، المُضاءتين وَحْدهما !

أيّها الفم ، كنتَ ستشرب
نخبَ المذاق الغامض ،
نخبَ ماءٍ مليءٍ بالرّمل
نخبَ الكائن الذي لا عودةَ له .

كنت ستشربُ ، حيث سيلتقي
الماء المرّ ، الماء العذب ،
حيث يَتألّق
الحبّ الذي لا يُتقَاسَم .

لكن لا تغتمّ ،
أيّها الفم الذي يطلب
أكثرَ من انعكاسٍ مضطرب ،
أكثرَ من ظِلّ نهار :

الرّوح تنمو من حبّ
الزّبد بلا جواب .
الفرح يُنقذ الفرح ،
والحبّ اللاّ حبّ .

حجـــر

كان يقول لي **أنتِ** الماء الأكثرُ غموضاً ، الأكثر نضارةً حيث يُذاقُ الحبّ الذي لا يُتَقَاسَم . استبقيتُ خطوته ، لكن بين أحجارٍ أخرى ، في التشرّب الأبديّ لنهارٍ أكثرَ انخفاضاً من نهار .

حجر مكتوب

حُظْوةٌ ، كنتِ تقولين ، لمصباحنا وأوراق الشجر ؛
ضيوفُ مساءاتِنا ، هؤلاء .
يجرّون إلينا مراكبهم على البلاط
يعرفون شهوتَنا للأبديّ .

اللّيل كامِلٌ في السّماء الّتي تعلن نارَها ،
وهم جاؤوا بخطوةٍ لا ظلّ لها ، يوقظوننا
يبدأ كلامهم مع ارتجاف أصواتِنا .

خُطوةُ الكواكب تقيسُ أرضَ هذا اللّيل المبلّطة ،
وهم يمزجون بنيرانٍ كثيرةٍ الغموضَ الخاصّ بالإنسان .

حجـــر

كان يشتهي ، دون أن يعرف ،
هلَكَ ، دون أن يملك .
أشجارٌ ، دخان ،
خُطوطُ الرّيح والخيبةِ
كانت سُكْناه .
لا نهائيّاً
لم يعانِق إلاّ موته .

مكان الموتى

ما مكان الموتى ،
ألهم حقٌّ مثلنا في الطرّق ،
هل يتكلّمون ، لأنّ كلماتهم أكثر حقيقيّة ،
هل هم روح أوراق الشجر أو أوراقٍ أكثر علوّاً ؟

هل بَنَى الفينيقُ لهم قصراً
وأقام لهم مائدة ؟
هل صرخة عصفورٍ ما في نار شجرةٍ ما
هي الفضاء حيث يتدافعون ؟

ربّما يسكنون في ورقة اللّبلاب
لأنّ كلامهم المُنْهَك
مرفأٌ لتمزّق الورق ، حيث يجيء اللّيل .

حجر

كنت جميلةً كما ينبغي .
ربّما يشبهني نهارٌ كهذا النّهار
لكنّ العوسج يتغلّب على وجهي ،
والحجر يُرهق جسدي .

اقتربي ،
أيّتها الخادمة العموديّة المخطّطة بالأسود ،
ذات الوجه القصير .

اسكبي الحليبَ الغامض الذي يُثير
قوّتي البسيطة
كوني أمنيتي
مُرْضعتي أيضاً ، لكن من الخلود .

مكان الموتى

ربّما كانت ثَنيّةُ النسيج الأحمر
مكانَ الموتى .
ربّما يسقطون
في يديه الحَصَويتين ؛ هل يتكاثرون
في الأمواج الرّاشقة ذات اللّون الأحمر ؛
هل جسمُ العمياء الفتيّة ، الرّماديّ
مرآةٌ لهم ؛ هل يداها ، هي الغريقة ،
هما جوعهم في غناء الطيور .

أم أنّهم تجمّعوا تحت الجميز أو القَيْقَب ؟
لا ضجيجَ بعد الآن يشوّش اجتماعهم .
تَقِف الرّبةُ على ذروة الشّجرة
وتوجّه نحوهم الإبريقَ الذهبيّ .

وأحياناً تتألّق الذّراع الإلهيّة وحيدةً في الشّجرة
وتصمت طيورٌ ، طيورٌ أخرى .

خجـــل

شعرتُ سنتين ، أو ثلاثاً
أنّني معجبةٌ بنفسي . الكواكبُ
الأنهارُ ، الغابات لم تكن تُضاهيني .
كان القمر يتقشّر على ثيابيَ الرّمادية .
كانت عيناي الغائرتان
تضيئان البحارَ تحت قبابها الظّلية
وكان شَعْري أكثرَ اتّساعاً من هذا العالم
بعينيه المغلوبتين ، وصرخاته التي لم تكن تصل إليّ .

تعوي حيوانات ليليّة ؛ هذه طريقي
وتَنْغلق أبوابٌ سوداء .

حجـر

ساقُكَ ، ليلٌ بالغُ الكثافة ،
نَهْداك ، مشدوديْن ،
بالِغا السّواد ، هل أضعتُ عينيّ ،
أعصابي من المنظر الفَظّ
في هذا الظلام الأشدّ فظاظةً من الحجر ،
يا حبيّ ؟

في مركز الضّوء ، أبْطلتُ
أوّلاً رأسي الذي صدّعه الغاز ،
بعد ذلك اسميَ وجميعَ البلدان ،
ثبّتت يداي المستقيمتان وحدهما .

سقطتُ في رأسِ الموكب
بلا إلهٍ ، ولا صوتٍ مسموع ، ولا خطيئة
حيواناً ثالوثيّاً يَصرخ .

حجر

اسْقُطي ، لكن مطراً عذباً ، على الوجه
أَطفئي ، لكن ببطءٍ ، السِّراجَ البالغ الفقر .

حنّا وحنّة

تسألين عن اسم
هذا البيت الواطىءِ المهدّم ،
إنه حنّا وحنّة في بلادٍ أخرى .

حين تعبر الرّياح الكبيرة
العتبةَ حيث لا شيء يُغنّي أو يظهر .

هذا حنّا وحنّة ومن وجهيهما الرّماديين
يَسقطُ جِصُّ النّهار وأرى مِن جديدٍ
زجاجَ فصول الصّيف القديمة . أتذكرين ؟
الأكثر بريقاً في البعيد ، القنطرةَ بنت الظّلال ؟

اليوم ، هذا المساء ، سنشعل ناراً
في القاعة الكبيرة .
سنبتعد ،
سنتركها تحيا من أجل الموتى .

حجر

وقفت آجلور *

في الأوراق الميتة .

قامتها المحمومة تهذبت

تحت أيدٍ مجتهدة .

تهيأت رقبتها تحت حرارة الشفاه .

جاء الليل الذي غطى وجهها المخرّب

ونحيبها المبعثر في سرير الصلصال .

---

* Aglaure

حجر

طويلاً دامت الطفولة في الجدار القاتم وكنت
وعيَ الشتاء ؛ كنتُ من المنحنى
بحزنٍ ، وقوّةٍ ، على صورة ،
وبمرارةٍ ، على انعكاسِ يوم آخر .

كنتُ ، أيّتها الذاكرة ،
دون أن أشتهي شيئاً
أكثرَ من المشاركة في المزج بين ضوئين ،
الزّيت النّهاريّ في سفينتها الزّجاجية ،
الذي ينشر روحها الحمراء في سماء الأمطار الطّويلة .

ماذا كنت سأحبّ ؟ زبدَ البحر
فوق **تريستا** ، حين كان لون بحرها الرّمادي
يبهر عيني أبي هَوْل الشواطىء ،
الذي يمكن تمزيقه .

حجر

عواصفُ بعدها عواصفُ ، لم أكن
إلاّ طريقاً من التّراب .
غير أنّ الأمطار كانت تُهدّئ التّراب الذي لا يُهدّأ ،
ومَدّ الموتُ في قلبي سريرَ اللّيل .

حجر

كتاب بورفيريوس عن الشمس ،
انظري ، إليه كومةٌ من الحجر الأسود .
قرأتُ طويلاً كتاب بورفيريوس ،
جئتُ إلى مكانٍ لا شمس فيه .

حجر

أيّتها المَقولَةُ بصوتٍ خافت بين الأغصان ،
أيّتها المهموسَة ، المَصْموتة ،
حامِلةُ الأبديّ ، أيّتها القمر ، افتحي الشبّاك قليلاً
وقومي بانحناءةٍ لأجلنا نحن الذين لم يعد لنا نهار .

صرَخ الوجهُ الأكثر دكنةً
أنّ النّهار قريب .
عبثاً انكمشَ نبات البَقْس
فوق الحديقة القديمة .

لهذا الشعب أيضاً نحيبه
لهذا الغياب ، رجاؤه .
لكنّ القمر يتغطّى والظلّ
ملأَ فمَ الموتى .

عن إيروس برونزي

كنتَ تشيخ في ثنايا
الرّتابة الآلهيّة .
مَن جاءَ يُؤَرْجِنُ بصباحٍ
أفقكَ العاري ؟

طفلٌ بلا عَجلةٍ ولا ضجيجٍ
اكتشفَ طريقاً لك .
ـ هذا لا يعني أنّ اللّيل القديم
لم يعد يَقْلق فيك .

الطّفل نفسهُ الطّائر منخفضاً
في ظلمة القِباب
أمسك بهذا القلب وهو يأخذه
إلى الأوراق المجهولة .

صـوت

كنا نشيخُ ، هو الأوراقُ وأنا النّبعُ ،
هو القليلُ من الشمس وأنا العمق
هو الموت وأنا حكمة الحياة .

كنت أقبلُ أن يقدّم لنا الزّمنُ في الظلّ
وجهَه الحيوانيّ ذا الضّحكِ غير السّاخر ،
كنت أحبّ أن تهبّ الرّيح التي تحمل الظلّ

أن لا يكون الموتُ في النّبع الغامض
إلاّ اضطرابَ الماء الذي لا قرار له ، والذي كان اللّبلاب يشربه .
كنت أحبّ ، كنت واقفاً في الحلم الأبديّ .

الغرفة

كان المرآة والنّهر الفائض ، هذا الصّباح ،
يتناديان عبر الغرفة ، كان ثمة ضوآن
يتلاقيان ويتّحدان في الغامض
من أثاثِ الغرفة المفضوضة .

وكنّا بلدينِ من النّوم
يتواصلان بأدراجهما الحجريّة
حيث كان يضيع ماء حلم ، غير مضطرب
يتشكّل باستمرارٍ ، يتفكّك باستمرار .

كانت اليد الهانئة تنام قرب اليد القلقة ،
أحياناً كان جسمٌ يتحرّك قليلاً في حلمه ،
وبعيداً ، في ماء طاولةٍ ، أكثر سواداً
كان ينام الثوب الأحمر المضيء .

الكتف

١

لتكن كتفك الفجرَ ، حاملاً
تمزّقيَ اللّيليّ القاتم ،
وزبدَ الصّور المرّ ،
وهذا الاحمرار العاليَ لصيفٍ مستحيل .

جسمك يُقوّسُ لأجلنا ساعته التي تتنفّس
كمثل بلادٍ أكثر صفاءً تنحني على ظلالنا
ــ ليكن طويلاً النّهار الذي ينزلق فيه ، لامعاً ،
ماءُ حلمٍ يتدفّق جارياً ، غيرَ مُوحَى.

آه في ضجيج أوراق الشجرة
كوني قناعاً لعيني الحلم المودَع ، المُغْلقَتين !
سمعتُ اشتدادَ صخب مجرىً آخر
يهدأ ، أو يضيع ، في أبديّتنا .

الشجرة ، القنديل

تشيخُ الشجرة في الشجرة ، إنه الصّيف .
يعبر العصفور غناء العصفور ويهرب .
تضيء حمرة الثوب وتبعثر
بعيداً ، في السّماء ، قافلةَ الألم القديم .

آه يا لَلْبلاد الهشة
كلهب قنديلٍ نحمله ،
والنّوم قريبٌ في نسغ العالم
وبسيطٌ نبضُ الرّوح المُتقاسَمة .

أنتِ أيضاً تحبّين اللّحظةَ حيث يكمَدُ ضوءُ القناديل
ويحلم في النّهار .
تعرفينَ أنّ عتمةَ قلبك هي ما يَشْفي ،
السّفينةَ التي تبلغ الشاطىء وتسقط .

الدروب

دروبٌ ، وسط
مادّة الشجر . آلهةٌ ، وسط
باقاتِ غناء العصافير ، الذي لا يتعب .
ودمكِ كلّه مقدّس تحت يدٍ حالمة
أيّتها القريبة ، يا نهاري كلّه .

مَن جمع الحديدَ
الصّدِىء ، بين الأعشاب العالية ، لن ينسى
أنّ الضوء يمكن أن يشتعلَ بين القشور المعدنيّة
ويحرق ملحَ الشكّ والموت .

الآس

أحياناً كنت أعرفكِ أرضاً ، أشرب
من شفتيك قلقَ الينابيع
حين ينبجس من الحجارة الدافئة ، وكان الصيف
يهيمن عالياً على الحجر السعيد وعلى الشّارب .

أحياناً كنتُ أسمّيك الآسَ وكنّا نُشعل
شجرةَ حركاتك جميعاً طول النّهار .
كانت هذه نيراناً عالية موجزة من الضّوء العذريّ
هكذا كنت أبتكركِ وسط شعركِ النيّر .

كان صيفٌ كبيرٌ باطلٌ قد نَشّفَ أحلامَنا
أصْداً أصواتَنا ، كبّر جسمينا ، فكّ قيودَنا .
أحياناً كان السرير يدورُ كمثل زورق حرّ
يدخلُ ببطءٍ بعيداً في البحر .

أيّام طويلة ، طويلة .
الدّمُ غيرُ المسكّن يرتطمُ بالدّم .
السّابحُ أعمى .
ينزل على طبقاتٍ أرجوانيّة في نبض قلبك .

حين تشرئبُّ الرّقبَة
تأخذ الصّرخة المقفرة دائماً فماً نقيّاً .

هكذا يشيخ الصّيف . هكذا يطوّق الموت
سعادة اللّهب الذي يتحرّك .
وننام قليلاً . النّغمة السّابعة
ترنّ طويلاً في النّسيج الأحمر .

النّحلة ، اللون

السّاعة الخامسة .

النوم خفيف ، بقع على زجاج النّوافذ .

يَغْتَرِف النّهارُ هنالك في اللّون ، الماءَ البارد ،

الجاري ، مساءً .

وهذا كما لو أن الرّوح تبسُطُ

بصيرورتها ضوءاً ، وتُطَمْئِن ،

لكنْ ، حين يتمزّق الواحدُ ، على السّاق الدكناء

تضيعين ، حيث شربَ الفمُ الموتَ اللاّذِعَ .

(قَرنُ الخِصب مع التّمر

الأحمر في الشمس التي تدور . وأزيز

نَحْل الأبديّة الوديعة العَكِرة

فوق المَرْج القريب الذي لا يزال يضطرم .)

المســاء

تخديداتٌ زرقاء وسوداء .

حَرْثٌ ينحرف نحو أسفل السّماء .

السرير ، واسعٌ مكسّر كنهرٍ فائض .

ـــ انظري ، إنه المساء

والنار تتحدث قربنا في أبديّة نباتات النّاعمة .

ضوء المساء

المساء ،
طيور بلا نهاية ، تتحادث
يَعضّ بعضها بعضاً ، ضوءٌ .
يدٌ تحرّكت على الخاصرة القفراء .

ثابتان نحن منذ وقت طويل .
نتحدث بصوتٍ خافت .
والزّمن حولنا كمثل غُدرانٍ من اللّون .

الصبر ، السماء

ماذا يلزمك أيّها الصّوتُ الذي يعودُ ، القريبُ من التّراب
كنسغ زيتونةٍ جمّدها الشّتاء الآخر ؟
الوقتُ الإلهيّ اللاّزم لملء هذا الإناء ،
بلى ، لا شيء إلاّ أن نحبّ هذا الزّمن المقفرّ والمليء بالنّهار .

الصّبر لإشعال نارٍ تحت سماءٍ سريعة ،
الانتظار المشترَك من أجل خمرةٍ سوداء ،
السّاعة ذات القباب المفتوحة حين تكون للرّيح
ظِلالٌ تلتفُّ على يديكِ المتأمّلتين .

صـــوت

آه ، كم كنّا بسيطين ، بين هذه الأغصان
لا شأنَ لنا ، نسير بخطوةٍ واحدةٍ
ظِـلاً يعشق ظِـلاً ، وفضاء الأغصان
لا يصرخ تحت وطأة الظلال ، ولا يتحرّك .

هَديتك إلى نومٍ بلا هموم ،
إلى خطواتٍ لا غدَ لها ، إلى أيّامٍ بلا مآل ،
إلى بُوقِ الأدغالِ حين يهبط اللّيل النيّر ،
مديرةً نحونا عينيها أرْضاً بلا عودة .

إلى صمتي ؛ إلى قلقي الذي لا حزن فيه
حيث كنتِ تبحثين عن طعم الزّمن الآخذِ في النُّضج .
إلى طرقٍ كبيرة مُغلقة ، حيث كان يأتي ليشربَ الكوكب الجامدُ
من الحبّ، والأخذ ، والموت .

حجـــر

نارٌ تسير أمامنا .
ألمح أحياناً رقبتك ، وجهك
ثم ، لا شيء غير المشعل ،
لا شيء غير النّار الضخمة ، أمواج الموتى ، العالية .

يفصلك عن اللّهب رمادُ
في ضوء المساء ،
أيّها الحضورُ ،
استقبِلْينا تحت قبتّكِ الخفيّة
من أجل عيدٍ غامض .

الضّوء ، متغيّراً

لم نعد نرى في الضّياء نفسه
لم تعد لنا العيون ذاتُها ، الأيدي ذاتُها .
الشجرة أكثر قرباً ، وصوت الينابيع أكثرُ يقظةً ،
وخطواتُنا أكثر عمقاً ، بين الموتى .

أيها الإلهُ غير الكائن ، ضَعْ يدكَ على كتفينا
ارسمْ جسمينا بثقل عودتك ،
أكمل مزْجَ أرواحنا بهذه الكواكب ،
هذه الغابات ، وصرخات هذه العصافير ، وهذه الظلال وهذه الأيام .

اجحدْ نفسَك فينا كمثل ثمرةٍ تتمزّق
امْحُنا فيكَ . اكشفْ لنا
المعنى الخفيّ لما ليس إلاّ بسيطاً
وسقطَ بلا نارٍ في كلماتٍ بلا حبّ .

حجـر

هل سينقذ النّهارُ في غَور النّهار
الكلام القليلَ الذي كُنّا معاً ؟
من جهتي ، أحببت كثيراً هذه الأيّام الواثقة ، وأسهر
على بضع كلماتٍ منطفئةٍ في موقد قلبينا .

حجــر

كنا نَسلُكُ هذه المرُوج
حيث كان إلهٌ يخرج أحياناً من شجرة .
(وكان ذلك برهاننا ، نحو المساء) .

كنت أدفعك بلا ضجيج
وأشعر بثقلك فوق أيدينا المتأمِّلة ،
يا لك أنتِ ، يا كلماتي الغامضة ،
يا حواجزَ على دروب المساء .

القلب ، الماء غير المضطرب

أأنتِ فرحةٌ أم حزينة ؟
— هل عرفت قطّ
غيرَ ألاّ شيء يخيّم ثقيلاً
على القلب الذي لا عودة له .

لا نقلةُ عصفورٍ
على هذه القبّة الزجاجيّة
لقلبٍ تخرقه
الحدائق والظّلال .

همٌّ عليك
تشرّبَ حياتي .
لكن ، لا ذكرى
في هذه الأوراق .

أنا السّاعة البسيطة
والماء غير المضطرب ،
هل عرفت أن أحبّك ،
غير عارفةٍ أن أموت ؟

كلام المساء

لم يكن لبلد أوّل تشرين الثاني ثمرٌ
لم يتمزّق في العشب ، وكانت طيورهُ
تلجأ إلى صراخٍ غيابٍ وحَصىً
فوق منحدرٍ عالٍ كان يُسرع نحونا .

يا كلاميَ في المساء .
كمثل عنب الخريف المتأخّر ، مَقْرورٌ أنْتَ
لكن الحمرة تلتهب في روحك وأحظى
بحرارتي الوحيدة الحقيقية في عباراتك المؤسَّسة .

يمكن أن تأتي سفينة
اكتمالِ الخريف ، نَيّرةٌ ،
سنعرف أن نمزج هذين الضّوئين ،
آه يا سفينتي المضاءَة التّائهة في البحر ،

ضوءَ اللّيل القريب وضوء الكلام ،
— ضباباً سيصعد من كل شيء حيّ
وأنت ، احمرار قنديليَ في الموت .

« آنديام ، كومبانيى بيلّلي . . . »

Don Giovanni, I, 3.

هل مصابيحُ اللّـيل الفائت ، في أوراق الشجر ،
لا تزال تشتعل ، وفي أيّ بلد ؟
إنه المساء ، حيث تكبر الشجرة ، على الباب .
سبقت النجمة النّارَ الواهيةَ الفانية .

آنديام ، كومبانيى بيلّلي ، يا كواكب ، يا منازل ،
يا نَهراً أكثر تلألؤاً في المساء .
أسمع زبداً تحمله الموسيقى ، يسقط عليكنّ
حيث يخفق قلبُ الموتى ، المفقود .

كتاب من أجل الشيخوخة

نجومٌ مُنْتَجَعة ؛ والرّاعي
مقوّسٌ فوق السّعادة الأرضيّة ؛ وسلامٌ كثيرٌ
كصرخة هذه الحشرة ، غير المنتظمة ،
التي يكوّنها إله فقير ، الصّمتُ
صاعدٌ من كتابك نحو قلبك .
تتحرّك ريحٌ بلا صوتٍ في ضجيج العالم .
الزّمن يبتسم بعيداً ، لتوقفه عن الوجود .
بسيطةٌ هي الثّمار النّاضجة في الحديقة .

ستشيخين ،
وإذ يبهتُ لونُك في لون الشّجر ،
صانعاً على الجدار ظِلاً أكثر بطئاً ،
وإذ تُهدّدُ الأرض ، بروحها أخيراً ،
ستَستأنفينَ الكتاب في الصّفحة المتروكة
ستقولين هذه كانت الكلمات الأخيرة الغامضة .

حوار القلق والرغبة

I

غالباً ، أتخيّل فوقي
وجهاً قُربانيّاً ، أشعتّه
كمثل حقلٍ محروث .
الشفتان والعينان بَواسِم
الجبهةُ مُقطّبة ، ضجّة بحرٍ مُتْعِبٍ أصمّ .

أقول له : كن قوّتي ، فيزداد نورُه
يهيمن على بلد حربٍ في طلوع الشمس ،
وعلى نَهْرٍ يُطْمئن بالتعرّجات
هذه الأرض المأخوذة المُخَصَّبة .

وأُدهش آنذاك ، لهذا الوقت
الذي لَزِم ، ولهذا التّعب . ذلك أنّ الثّمار
كانت تسودُ من قبل في الشجرة . وكانت الشمس
قد أضاءت بلدَ المساء .

أنظرُ إلى الهضاب العالية حيث أقدر أن أعيش ،
إلى هذه اليد التي تمسك بيدٍ صخرية أخرى ،
إلى تنفّس الغياب الذي يرفع
طبقاتِ حَرْثٍ خريفيّ لم يكتمل .

II

أفكر بالغائبة كوريه * ؛ الّتي قبضت
بيديها على قلب الأزهار ، الأسود المتلألىء ،
والّتي سقطت ، تشرب السّواد ، غير مكشوفةٍ ،
في مرج الضّوء — والظلّ . أفهمُ
هذا الخَطَأ ، الموت . الزّنبقُ ، الياسمينُ
من بلدِنا . شواطىء ماءٍ
قليل العمق ، صافٍ وأخضر ، تجعل ظِلّ
قلب العالم ، يرتعش فيه . . . لكن بلى ، خُذي .
خطيئة الزّهرة المقطوعة غُفِرت لنا
الرّوح كلّها تتقوّس حول كلام بسيط
وتضيع الرّتابةُ في الثمرة النّاضجة .

حديد كلمات الحرب يتبدّد
في المادّة السّعيدة الّتي لا عودةَ لها .

---

* Coré

III

بلى ، هذا هو .
افتتانٌ في الكلمات القديمة .
تدرّج حياتنا كلّها في البعيد كمثل بحرٍ
سعيدٍ ، يوضحه سلاحُ ماءٍ حيّ .

لم تعد لنا حاجةٌ
إلى الصّور لكي نحبّ
تكفينا هناك ، هذه الشجرة الّتي تنفصم ، بالضوء ،
عن ذاتِها ، ولم تعد تعرف
غيرَ اسْمٍ شبه ملفوظٍ لإلهٍ شبه متجسّد .

وكلّ هذا البلد العالي الذي يشعله الواحدُ القريبُ جدّاً ،

وهذا الملاطُ على جدارٍ يلمسه الزّمنُ البسيط
بيديه اللّتين قاستا واللّتين لا حزن فيهما .

IV

وأنت ،

وهنا زَهْوي ،

أيتها الأقلّ في الضوء المعاكس يا مَن أحسنتُ حبّها

ولم تعد غريبةً عنّي . أعرف أننا كبرنا

في الحدائق الداكنة ذاتها . شربنا

الماء الصّعبَ نفسه تحت الأشجار .

وهدّدكِ الملاك القاسي نفسه .

وخطواتُنا هي نفسُها ، مُفْلِتةً

من عوسج الطّفولة التي تُنسى ومن

اللّعنات الشّريرة نفسها .

V

تصوّري أنّ الضوء
تأخّر ذات مساء على الأرض ،
فاتحاً يديه العاصفتين الواهبتين ، اللتّين نجد في راحتيهما
مكان قلقِنا ورجائِنا .

تصوّري أن يكون الضوء ضحيّةً
من أجل سلام مكان فانٍ وفي ظلّ إلهٍ
بعيدٍ حقّاً ، وأسود . كان الأصيلُ
أرجوانيّاً ، بشعاعٍ بسيط . التّخيلُ
تمزّقَ في المرآة ، مديراً نحونا
وجهه الباسم الفِضّي النيّر .

وشخنا قليلاً . والسّعادة
أنضجت ثمارَها النيّرة في أغصانٍ غائبة .
أهذا بلدٌ أكثر قرباً ، يا مائيَ النقيّ ؟
هذه الطّرق التي تسلكينها في كلماتٍ جامدة
هل تمضي إلى شاطىءٍ سُكناكِ إلى الأبد
« بعيداً » التّموسُق ، « مساءً » التّفككُ ؟

VI

آه أيقظنا بجناحك المكوّن من الأرض والظلّ ،
أيّها الملاك الفسيحُ كالأرض ، وانقلْنا
هنا ، في المكان نفسه من الأرض الفانية
من أجل بداية . لتكن الثّمار القديمة
جوعَنا وظمأَنا المسكّنَيْنِ أخيراً .
لتكن النّار نارنا . ويصبح الانتظارُ
هذا القدرَ القريبَ ، هذه السّاعة ، هذه الإقامة .

وإذ نبتَ الحديدُ ، القمح المطلق ،
في تربة حركاتنا ،
ولَعناتنا ، وأيدينا النقيّة ،
وإذ سقطَ في حبوبٍ استقبلتْ ذهبَ
زَمنٍ ، كدائرة الكواكب القريبة ،
وعَطوفٍ وباطل ،

هنا ، حيث نمضي ،
حيث تعلّمنا اللّغةَ الكونيّة ،

تَفَتّحْ ، كَلِّمنا ، تمزَّقْ
تاجاً محترقاً ، نبضاً نيّراً
عنبرَ القلب الشّمسيّ .

عن بيبتا لتانتوريه

ما من ألمٍ قطّ
افترسته الشمس ، كان أكثر إناقةً
في هذه الشبّاك السّوداء . وما من إناقةٍ
قطّ كانت سبباً أكثر روحيّةً ،
ناراً مزدوجةً ، واقفةً على شباك المساء .

هنـــا ،
كان رجاءٌ عظيمٌ رسّاماً . أوه ، ما الأكثر حقيقيّةً
من حزنٍ يشتهي ، أو من الصّورة المرسومة ؟
مزّقت الرّغبةُ حجابَ الصّورة
أعطت الصورة الحياة إلى الرّغبة المنزوفة .

صـــوت

أنت مَن يقال إنه يشرب من هذا الماء شبه الغائب
تذكّر أنه يُفلت منا ، وكلّمنا .
هل المخيِّبة ، التي أمسك بها أخيراً ،
هي من طعم آخر غير الماء الفاني ، وهل ستكونُ
المنوَّرَ بكلام غامضٍ
والذي شُرب من هذا النّبع الحيّ أبداً ،
أم أن الماء ليس إلاّ ظِلاً ، حيث لا يفعل وجهك
إلا أن يعكس نهايته ؟
— لا أعرف ، لستُ ، الزمن يكتمل
كفيض حلمٍ لآلهةٍ غير مكشوفة ،
وصوتكِ ، كالماء نفسه ، يمّحي
من هذه اللّغة النيّرة التي استنفدتْني .
بلى ، أقدر أن أعيش هنا . الملاك ، الذي هو الأرض ،
يمضي في كلّ دَغَلٍ ، ويظهر ويشتعل .
أنا هذا المذبح الفارغ ، وهذه الهاوية ، وهذه القِباب
وربّما أنتِ ، والشكّ : لكنِ الفجرُ
وتلألؤ الحجارةِ المفضوضة .

فن الشعر

كان النّظر مجروفاً خارج هذا اللّيل .
كانت الأيدي يابسةً وجامدةً .
صُولحتِ الحُمّى . قيل للقلب
أن يكون القلب . كان شيطانٌ في هذه العروق
هرّب صارخاً .
كان في الفم صوتٌ قاتمٌ دامٍ
غُسِل واستُعيد .

في خديعة العتبة

DANS LE LEURRE DU SEUIL

(1975)

They look'd as they had heard
of a world ransom'd, or one
destroyed *.

(Le Conte d'hiver)

* « بدوا أنهم سمعوا
خبر عالم مخلص أو عالم مهدم »
(حكاية الشتاء) .

لكن كلاّ ، دائماً
من انتشار جناح المستحيل
بصرخةٍ ، تستيقظ
في المكان الذي ليس إلاّ حلماً . صوتُكَ ، فجأةً ،
أَجَشُّ كالسّيل . المعنى كلّه ، مجتمعاً ،
يسقط فيه ، بضجيج
نومٍ مَرْميٍّ على الحَجر .

وتنهض مرّةً أبديّة
في هذا الصّيف الذي يُحاصرك .
ثانيةً ، هذا الضّجيجُ من مكانٍ آخر ، قريب ، بعيد ؛
تَمضي إلى هذا المصراع الذي يَرْتَجُّ . . . لا ريح في الخارج ،
وأشياءُ اللّيل جامدةٌ كجبهة ماءٍ في الضّوء .
انظرْ
إلى الشجرة ، حاجز الشُّرْفة ،
المدى الذي يبدو مرسوماً في الفراغ ،
كتلَ اكسيد الكوبالت النيّر في الوادي ،
لا تكاد ترتعش ، ربّما هي انعكاس
شجرٍ آخر وحجارة أخرى في النّهر .
انظر ، بعينيكَ جميعاً انظر ! لم يعد لشيءٍ هنا ،

أكان هذا الوادي ، هذا البريق
على الذّروة في العاصفة ، أو الخبز ، أو الخمر ،
ذلك التنفّس الأبديّ الصّامِت اللّيلي
الذي كان يوحّد
في النوم العتيقِ
الحيواناتِ والأشياءَ المُلْيلة
مع اللاّنهاية تحت عباءة النّجوم .

انظر ،
اليدُ التي تمسك بالنّهد ،
تتعرّف على شكله ، تُفجّر منه
الجفافَ العَذْب ، تعلو اليدُ ،
تتأمّلُ ابتعادَها ، جهلَها ،
وتلتهب منسحبةً في الصّرخة القفراء .
تتلألأ السّماء مع ذلك بالإشارات ذاتها ،
لماذا تخثّر المعنى
في خاصرة **النّجمة الدُّبّ** ،
جرحاً لا يَشْفى يُجزّىء
في نهر كلّ شيء عبر كل شيء
من دمه المتجمّد ، كرقمِ موتٍ ،
الدّفْقَ المتلألىء لحيواتٍ غامضة ؟
تنظر إلى النّهر الأرضيّ يتدفّق ،
في الأعلى والأسفل في اللّيل ذاته

رغم هذه الانعكاسات كلّها ، التي تجمع
النّجوم عبثاً إلى الثّمار الفانية .

وأنت الآن تعرف بشكلٍ أفضل أنّك كنت تحلمُ
أنّ زورقاً يحمل تراباً أسود
كان ينحرف عن الشاطىء . كان النوتيّ
يضغطُ بجسمه كلّه على العصا الطّويلة
التي تَدعّمت ، ولا تعرفُ
أين ، في أوحالٍ لا اسْمَ لها في قرارة النّهر .

يا أرضُ ، يا أرض
لماذا كمالُ الثمرة ، حين يتوارى المعنى
عن اللّون والشّكل ، كمثل زورقٍ لم نكد نستشعره ،
ومن أين هذه الذكرى التي تعصر قلبَ
زورقٍ من صيفٍ آخر بمستوى العشب ؟
نعم ، من أين البداهات الكثيرة عبر كثيرٍ
من الألغاز ، وكثيرٍ من اليقين أيضاً ، وحتّى
كثيرٍ من الفرح ، المَصُون ؟ ولماذا الصّورة
التي ليست المظهرَ ، التي ليست
حتّى الحلم المضطرب ، تلحّ
رغم إنكار الكائن ؟ أيّام عميقة ،
إلهٌ شابٌ كان يعبر مخاضةَ النّهر
كان الرّاعي يبتعد في الغبار ،

كان أطفالٌ يلعبون عالياً في أوراق الشجر ،
ضَحكات ، معارك في السّلام ، صخب المساء ،
وكان لنسمِ الرّوح ، هناك ، الإيقاع نفسُه . . .

اليومَ ، ليس لِلمُعدّي
إلاّ الشاطىء الصّاخب ، الأسود
وحين مات **بوريس دو شاوزر** *
مصغياً على الرّصيف العائم إلى موسيقى
لا يعرف مجاوروه عنها شيئاً (هل كانت
موسيقى نايِ الخلاص المُنْزَل ،
أو خيرٍ أقْصى من الأرض الضائعة ،
« عملاً » مُتَجلّياً ؟) — لم يترك وراءه
إلا مِياهاً تشتعلُ ألغازاً .

يا أرض ،
ما من نجومٍ أكثر عنفاً
ختمت بنيرانٍ أكثر ثباتاً تُخمَ السّماء .
ما مِن نداء لراعٍ في الشجرة أكثرَ افتراساً
دَمّرَ صيفاً أكثرَ غموضاً .
. . . .
. . . .

---

* **Boris** de Schloezer.

يا أرضُ ،
ماذا أدرك ، ماذا كان يفهم ،
ماذا قَبِل ؟
أصغى ، طويلاً ،
ثم نَهض ، نارُ
هذا العمل الذي كان يبلغ ،
من يدري ، ذروةً
من الانفكاك ، من الاكتشافات المتجدّدة ، من الفرح
أضاءت وجهه .

ضجيجٌ ، مغلق ،
للعصا الطويلة التي ترتطم بالموج المُوحِل .
لـــيـــلُ
قيدٍ ينزلق إلى قاع النّهر .
في مكانٍ آخر ،
هنالك حيث كنت أجهل كل شيء ، حيث كنت أكتب ،
كان كلبٌ لعلّه مسمومٌ
يخدش الأرض القاتمة المرّة .

اصطدمْ ،
اصطدمْ أبداً .

في خديعة العتَبة .

بالبابِ ، مختوماً
بالجـِملة ، فارغةً .
في الحديد ، غيرَ موقظٍ
إلاّ هذه الكلماتِ ، الحديد .

في اللّغة ، سوداء .

في هذا الموجود هناك
جامداً ، ليسهرَ
إلى طاولته ، مثقلةً
بالإشارات ، بالبريق . والمُنادَى

ثلاثَ مرّاتٍ ، لكنّه لا ينهض .

. . . .

في الجمع ، حيثُ لم يأتِ
من يُحتَفلُ به

في القمح المشوَّه
والحمرة التي تجفّ .

في اليد التي تحتفظ
بيدٍ غائبة .

في لا جدوى
التذكّر .

في الكتابة ، سريعاً
مملوءةً بالليل .

وفي الكلمات المنطفئة
حتى قبل الفجر .

. . . .

في الفم الذي يريد
من فمٍ آخــر
العسلَ الذي لا يقدرُ أيُّ صيفٍ
أن يُنضجه .

في النّغمة التي تتكشّفُ ، عنيفةً ،
حتى تُصبح ، وقد صارت جليداً ،
المفتاحَ ، تقريباً .

ثم إصرارُ
النّغمةِ المُسكَتة
التي تفكّك تموّجَها
العاريَ ، تحت النّجم .

في انعكاس النّجم
على الحديد .
في قلق الأجسام
التي لا تجدُ نفسها .

اصطدمْ ، متأخّراً .

الشفاه إذ تشتهي
حتى حين يسيل الدّم ،

اليد إذ تصطدم أعظم
أيضاً عندما
لا تعود الذّراع إلاّ رماداً
مبعثراً .

. . . .
. . . .

كثيراً قبل أن يندفع الكلبُ
في الأرض السّوداء

ينطلق المعدّي ، صارخاً
نحو الشاطىء الآخر .
ادفع مركَبك من أجلنا
في المادّة ،
وفمك مليءٌ بالوحل
وعيناكَ مأكولتان .
بأيّ قاعٍ تحظى عصاك ، لا تعرف ،
أيّ انحرافٍ
ولا ما ستضيئه ، وقد استولى عليها السّوادُ ،
كلماتُ الكتاب .

كثيراً قبل الكلب
الذي يُغطّى بشكلٍ رديء ،
تُغَطّى ، أيّها المُعدّي
بمعطف الإشارات .
تُكلّمُ ، تُعطى
مفتاحاً أو اثنين ، والخريطة
الباطلة لأرضٍ أخرى .
تُصغي ، وقد استدارت عيناكَ
نحو الماء القاتم .
تُصغي إلى بعض الخُرافَاتِ
التي تسقط .

كثيراً قبل الكلب
الذي مات أمس
يُرادُ ، أيّها المُعدّي ،
زَرْعُ وميضك الفُوسفوريّ .
كشفَتْ أيدي الفتيات
عن الأرض تحت الجِذْع
الذي يحمل ذهبَ الحبوب المقبلة .
كنت ما زلت قادراً أن تميّز أذرعهنّ
ذات الظلال الثقيلة ،
وبروز أثدائهن
تحت القميص .
ضَحكٌ يتأجّج عالياً هناك ،
لكنّك تبتعد .

رُميتَ دامياً
في الضّوء ،
فتحتَ عينيك ، صارخاً
لكي تسمّي النهار
لكن لم يُقَلِ النّهار
حتّى سقطَ من جديدٍ رداءُ الدّم ،
بصرخةٍ كبيرة صمّاء ،
فوق الضّوء .
ضَحِكٌ يتأجّج عالياً هناك ،

يتحمّرُ في الكثافة
التي تتفتّت .
لا تلتفتْ إلى نيران
شـــاطئنا .

كثيراً قبل النّار
التي لم تحسن الاشتعال ،
وُضع شاهدُ النّار ، غير المعروف ،
على سريرٍ من الورق .
يا قرّاء الإشارات
أيّة ريحٍ من الوجه الآخر ، غير مسموعة ،
ستجعل وجوهكم غير المُدارةِ نحونا
تدمدم ؟
أيّة أيْدٍ متردّدة
وكأنها تكتشف ،
ستأخذ ، ستقلّب
ظلَّ الصّفحات ؟
أيّة أيدٍ متأمّلة
تبدو كأنها وَجدَتْ ؟

. . . .

أوه ، انحني ، طَمْئنِي
يا سحابة

الابتسامة الّتي تتحرّك
في وجهٍ نَيِّر .
كوني لِلمَقْرورِ
عند الشاطىء
بنتَ فرعون
وخادماتِها ،

اللاّئي لا يزال ماؤهنّ
قبل النهار ،
يعكس النّسيجَ الأحمرَ
مقلوباً .

. . . .

وكمثل يَــدٍ
تميّز على طاولة
الحَبَّ شِبْه الثّابِت
مِن الزّؤان القاتِم

وعلى الماء خشبٌ أسود
يتشرّبه ويزدوج
بانعكاسٍ ، حيث المعنى
يتشكّل فجأةً

استقبلي ، لكي تنامَ
في كلامكِ ،
كلماتنا التّي تثقبها الرّيحُ
بِعَصْفِها .

. . . .

« هل جئتَ لتشربَ من هذه الخمرة ،
لا أسمحُ لك بشربها .
هل جئتَ لتتعلّم هذا الخبز
القاتم ، الذي حرقته نارُ الوعد ،
لا أسمح لك بأن تلقي عليه ضوءاً .
هل جِئت لا لشيء إلاّ لكي
يهدّئك الماء ، القليل من الماء الفاتر ، الذي يُشرب
وسَط اللّيل بعد شفاهٍ أخرى
بين السّرير المشعّث والأرض البسيطة ،
لا أسمح لك بأن تلمسَ الكأس .
هل جئتَ لكي يتلألأ الطّفل
فوق اللّهب الذي يُقفل عليه
في خلود ساعة نيسان
حيث يقدر أن يضحك ، وأنت ، حيث يستقرّ الطّائر
في السّاعة التّي تستقبله ولا اسْمَ لها ،
لا أسمح لكَ أن ترفع يديك فوق الموقد
حيث أسيطرُ نيّراً .

هل جئتَ ،
لا أسمح لك أن تظهر .
هل تسأل ،
لا أسمح لك أن تعرفَ الاسم الذي تصوغه شفتاك . »

. . . .

كثيراً قبل الحجارة
التي يقتلعها العاملُ
واقفاً على الجدار ،
متأخّراً ، في اللّيل .

كثيراً قبل خاصرة الغراب ، الذي يَسِمُ
الضّبابَ بعفونته
ويعبرُ في الحلم مطلقاً صراخاً
طافحاً بالتّراب الأسود .

كثيراً قبل الصّيف
الذي تكسره المجرفة ،
كثيراً قبل الصراخ
في حلمٍ آخر ،

يندفع صارخاً هذا الذي
يُمثّلنا ،
ظِلاً يُنشئه الأَملُ
على الأصل ،

والاتّحادَ الوحيدَ ، هذه الحركة
من الجسم — حينما ، فجأةً ،
بكتلتها المرميّة فوق العصا الطويلة
تنسانا .

. . . .

نحن ، الصّوت الذي تكبتُه
ريح الكلمات .
نحن ، العمل الذي يمزّقه
إعصارُها .

ذلك إن جئت نحوك ، أنتَ من تكلّم ،
القاعة فارغة
حصىً ، جرَيان ،
أصـــداء .
هل هذا النّداءُ الذي يجيبني ، « آخر »
أم أنا ؟
وتحت قبّة الصدّى ، وقد تعدّد ،
هل أنا آخرُ ، غيرُ سَهْمٍ من أسهمه ، رُشِقَ
على الأشياء ؟

نحـــنُ
بين أنواع الضجيج ،

نحـــن
واحـــدٌ منها .

منفصلاً
عن الحاجز الذي يتهدّم ،
متجوِّفاً ، مُتّسِعاً ،
فارغاً من ذاته ،
مُتَأَرْجِناً ،
منتفخاً بامتلاءٍ بعيد .

. . . .

انظر هذا السّيل ،
يندفع هادراً في الصّيف المقفر
وهو مع ذلك ، جامد ،
إنّه الكَدْنُ الحَرُون
والوجه الأعمى .
أَصْغِ .
ليس الصّدى حول الضّجيج بل فيه
كأنّه هاويته .
شواطىء الضّجيج الصّخرية
الحُفَرُ التي تتكسّر فيها مياهه ،
نباتات كاسر الحَجر
تتملّصُ من عينيك بصرخة

نَسْرٍ ، أخيرة .
حيثُ يصطدم عَتَبُ (*) صوت الماء ،
لا تقدر أن تسمعه ،
لكن استسلمْ ليحملك ، مفتونَ العين ،
الجناحُ الأبَحُّ .

نحن
في محلول الضّجيج
نحــن
محمولون .
نعم ، نحن ، حينما السّيلُ
بيديه المكسّرتين
يقذف مُطلقَ الحجارة
ويدحرجه ويستعيده .

الخاتِلُ (*)
في ذروة طيرانه ،
صارخــاً ،
يتكوّم على نفسه ويتمزّق .
من صدره الذي قطّعه المنقار الغامض

---

* العتب : جائز خشبي كبير يرفع على قاعدتين فوق مدخل .
* صفة الطائر الذي يعيش من القنص .

ينبجس الفراغ .
الضّجيج في ذروة الكلام أيضاً ،
في العمل
تموّج ضجيجٍ ثانٍ .
لكن في ذروة الضّجيج يتغيّر الضّوء .

. . . .

المرئيّ العاجزُ كلّه
يُبطل انكتابَه ،
جمرٌ يعبر فيه نداءُ
أرْيافٍ أخرى .

والصّاعقة في سلامٍ
فوق الأشجار ،
رَحِمٌ يتحرّك فيها حالمين
النّومُ والموت ،

ويشتعلُ ، لوناً ،
ليلُ العالم
كما يعوم في الماء
الأسود ، نسيجٌ مرسوم

حين تقسم الصّورةُ
فجأةَ المدّ ،

معلنةٌ بذارَها ، النّارَ ،
على عصاً طويلة .

. . . .

ســـاعـــة
محذوفةٌ من المجتَمْع ، الآن .
حضورٌ للموت
اهتدى . مصباح كهربائيٌّ
يجثو في صمت
ويشـــتعل
زائفاً ، يرجُّه
اللّيل الذي لا قِيمَّةَ له .

أصغي إليكَ
ترتجّ في لا شيء العمل
الذي يُغيِمّ في العالم كلّه .
ألتقطُ وَطءَ
النّداءات
التي مَرْعاها هو المصباح الذي يشتعل .
آخذ الأرضَ بملْءِ اليدين ،
في هذا الاتّساع ذي الجوانب النّاعمة
حيث لا قاعَ
قبل النّهار .

أصغي إليك ، آخذ
في سلّتك الحبْليّة
الأرضَ كلّها . خارجاً
لا يزال الوقت وقتَ الألم
قبل الصّورة .
في يد الخارج ، المطبقة
بدأ ينبت
قمحُ أشياء العالم .

. . . .

. . . .

النوتيّ
الذي يلامس بعصاه ، متأمّلةً ،
كتفك ،
وأنت الشخص الذي يغطّيه اللّيل
حينما ، عبثاً ، تبحث عصاك
عن قاع النّهر ،

مَنْ ، من سيضيع
من يقدر أن يأمل ، أن يَعد ؟
منحنياً ، انظر
إلى وجه ينبثق على الماء

كما تشتعل نارٌ ، في انعكاس
كتفك .

لونـــان

كثيراً قبل النّجمة
في الانعكاس
تحفر يدان ليس لهما ما تمسكان به
غير ثقتهما .
تبحث يدان ، مكسورتين ،
عن أفضل من الذّهب
ولكي تولد الحياة
من مجرّد الحلم .

يا لَتحزُّم الانعكاس
رغم الوحل ،
عتبة في تجعّد
الماء المُغلَق ،
أغصانٌ وثمارٌ تعبر
الماء المسدود !
بلى ، أنت هذا البلد ،
أنت من أُوقظه
كما في الماء الذي يُحرِّك ، حتى في اللّيل ،
السّماءُ أُخرى .

شجرة النّجوم
تهتزّ في الماء المُحرّك .
الضّوء الآخر
يتلألأ ، في النّسَم الفائض .

إذن ، أيّتها القوة العارية ،
أجمعكِ
في يديّ المقرّبتين
من أجلِ كأس .
العوالم تسيلُ
عبْر أصابعي ،
لكن ما يصعد فينا ، يا مائيَ ، مشتعلاً ،
يريد حياةً .

ألامسكِ من شفتيكِ
يا صديقتي ،
أرتجف من الاقترابِ ، طفلاً ، نوماً ،
إلى مصر هذه .
أوراق الشجر ، ليالي الصّيف ،
الحيوانات ، طرق السّماء ،
النّسمات ، صامتةً ، الإشاراتُ ، ناقصةً .
ها هي هنا تنام .
اشرب ، تقولين لي ، مع ذلك ،
من المعنى الذي يحلم .

اشرب ، أنا الماءُ ، مشتعلا ،
في كتفِ المدّ .
هناك حيث ينتفخ النّهدُ
بانعكاسٍ نجميّ .
اشربْ ، انعكاساً .
أحِبَّ حولي ، أنا التي لا تقدر أن تدركها ،
بفمٍ لا نهاية له ،
حضورَ النّجمة الجامد .

أثِق ، أشربُ ،
الماء ينزلقُ من بين أصابعي ،
كلاّ ، يتلألأ .
أيّتها الأرض ، ملموحةً ،
أيّتها الأعشاب مما قبلَ الزّمن ، أيّتها الحجارة النّاضجة ،
أيّتها الألوان الأخرى ، التي لم تُتَخَيّلْ قبل بسيطةً كمثلها الآن ،
ألامِس سنابلَكِ ، ثقيلةً ، يحنيها المدّ
في الظّلمة .

وفجأةً ، تُخرّب
صرختنا العناق ،
لكن حين ننتشر
أيّها الفجر ، يدوم هذا القمح .

. . . .

كثيراً قبل النّجمة
التي ابيضّت
يجد الرّاعي الحملَ
بين الأحجار .
فجرٌ بلون اللّبن ، فوق زبَد
حيواناتٍ متراصّة ،
سلامٌ مفكّك ، في نهاية أمواج
الوَطْء .
كان الوقت بارداً ، واللّيلُ
بقيَ ممزوجاً بالأرض .

كثيراً قبل النّجمة
يستحمّ في ما هو موجودٌ
الطّفلُ البسيط
الذي يحمل العالم .

لا يزال الوقت ليلاً ، لكن هو
من لونين
أزرق يميل إلى الأخضر
في ذروة الشّجر ،
كنارٍ تضيء
بين الثمار

وأحمر النّسيج الثّقيل

المرسوم

الذي كانت تغسله المصرية ، غير المنّبهة من نومها ،

ليلاً ، في ماء النّهر ،

أهو النّهارُ ،

في وحل الصورة ذات العينين الحاويتين

حين اصطدمت العصا

بالكلام .

العاصفة التي تُبطىء ، السّرير المُشَعّث ،
النّافذة التي تصطفق في الحرارة
والدّمُ في حمّاه : أستعيدُ
اليدَ القريبة من حلمها ، الدِّسارَ (*)
من عروته في الزّورق المُثبّت
برَصيفه العائم ، في زَبد ،
ثم أستعيد النظر ، والفمَ من الغياب
واليقظة المفاجئة في الصّيف القاتم
لكي أجلبَ إليه العاصفة وأكمله .
— أينما كنتِ حين آخذكِ غامضةً ،
وقد تكاثر فينا هذا الضّجيجُ البحريّ ،
اقبلي أن تكوني اللاّمبالاة ، أن أعانقَ
على مثال الله العمياءَ المادّة
التي لا تزال الأكثر خواءً في اللّيل .
استقبليني بشدّة لكن بشرود ،
اعملي على ألاَّ يكون لي وجه ، ولا اسمٌ
لكي يزداد عطائي لكِ وقد أصبحت السّارق
ولكي يصبح الغريبُ المنفيَ ، فيك ، فيّ
الأصلَ . . . أوه ، لكنني

* قطعة خشب أو معدن تستعمل لسد ثغرة أو للجمع بين جسمين أو لإيقاف حركة .

أودّ ، ناسياً إيّاك ، وأنا معكِ ،
أن تفكّي أصابعي ،
أن تشكّلي من راحتيّ كأساً ،
أشربُ ، قربَ عطشكِ .
ثم أتركُ الماء يجري فوق أعضائنا .
ماءٌ يجعلنا نكون ، ونحن لم نكن ،
ماءٌ يسيل عبر الأجسام القاحلة
من أجل فرحٍ مُبعثَر في اللّغز ،
غير أنّــه حسٌّ داخليّ ! أتذكرين ،
كنا نسيرُ في هذه الحقول المسيّجة بالحجر ،
وفجأةً خزّان الماء ، وهذان الحضوران
في أيّ بلدٍ آخر من الصّيف المقفر ؟
انظري كيف ينحنيان ، هما مثلنا ،
هل يصغيان إلينا ، يتحدّثان عنّا ،
باسْمينِ تحت أغصان الشجرة الأولى
في ضوئهما السّعيد المحجوبِ قليلاً ؟
ألم يكن يُخيّل أنّ بريقاً
آخر ، يتحرّك في توافق وَجْهيهما ،
ويمزج بينهما ، ضاحكاً ؟ انظري ، الماء يضطرب
غير أنّ أشكاله ، وقد استُنفدت ، أكثر نقاوةً .
ما الحقيقيّ من هذين العالمين ، أمرٌ لا طائل فيه .
ابتكريني أو لعلّك تضاعفينني
على تخوم أسطورةٍ ممزّقة .

أُصغي ، أَقْبلُ ،
ثمّ أزيح الذّراعَ التي انطوت
مخفياً الوجهَ المضيء
ألامس فمه بشفتيّ ،
مشوّشاً ، متكسّراً ، كأنّه البحر .
مقدّسٌ أنا كمثل إله في الشمس الطّالعة
فوق هذا الماء حيث يزهر تشابُهنا ،
أتمتم : أهذا إذن ما تُريدينه ،
أيتها القوّة غير الرّاضية التّائهة في العوالم ،
أن أجمعك ، حياةً ، في إناء هويّتينا
التّرابيّ العاري ؟
والحقّ في كلّ لحظةٍ كلّها صَمْتٌ
يُخيّل أن الزّمن سيتوقّف
كما لو أنه يتردّد في الطريق ،
ويرى من فوق الكتف الأرضيّة
ما لا نقدر عليه أولا نريد أن نراه .
لم يعد الرّعد يقصف في السّماء الهادئة ،
لم تعد المزْنَةُ تمرّ على سقفنا ،
والمصراعُ ، الذي كان يصطدم بحلمنا ،
صمتَ منحنياً على روحه الحديدية .
أسمع ، لا أعرفُ أيّ صوت ، ثم أنهض
وأبحث ، أيضاً في الظلّ ، حيث أجد
كأس المساء البارح ، نصف الملآنة .

آخذها ، تتنفّس في تنفسّنا
أجعلكِ تلامسينها بعطشكِ الغامض ،
وحين أشرب الماء الفاتر حيث كانت شفتاكِ ،
يبدو الزّمنُ كأنّه ينتهي فوق شفتيّ
وأن عينيّ أخيراً تتفتّحان على النّهار .

. . . .

أعطيني يدك بلا عودة ، يا ماءً غيرَ يقينيّ
قطرّتُه يوماً بعد يوم
من أحلامٍ تتمّهل في الضّوء
والرّغبةِ الشّريرة في اللاّنهاية .
ألا لا ينقطعْ خيرُ النّبع
لحظةَ العثور على النّبع ،
ألا لا تَنْفصل الأشياء البعيدة
مرّةً ثانية عن القريبة ، تحت
منجل الماء الذي لم ينضب لكن الذي لا طعم له .
أعطيني يدكِ وتَقدّميني في الصّيف الفاني
مع صوت الضّوء المتغيّر ،
تبدّي مبدِّدةً إياي في الضوء .

الصور ، العوالم ، التلهّفات
الرّغبات الّتي لا تعرف جيّداً أنّها تفكّ ،
الجمال الخفيّ في الرّحيم الغامضة ،

بيديه المهدَّبتين مع ذلك بالضّوء ؛
الضّحكات ، الالتقاءات على الدّروب
والنداءات ، الأعطيات ، الموافقات ؛
المطالبات بلا نهاية ، الولادة ، المحال ،
المحالفات الأبديّة والمحالفات المعجّلة ،
الوعودُ الخارقة التي لم يتمّ الوفاء بها ،
لكن ، آجلاً ، اللاّ مؤمّل ، فجأة : لِتتجمعْ وردة الماء العابرة
هذا كلّه
متجوّفةً هنا ، ثم لِتُضيئْهُ
في ثُقْبِ العَجلة ، الجامد .

. . . .

سلامٌ ، فوق الماء المضاء . كأنّ زورقاً
يعبرُ ، مثقلاً بالثمار . كأنّ موجةً
من كفايةٍ ، أو جمود ،
ترفع مكانَنا وهذه الحياة
كزورقٍ كأنّه آخر ، لا يزال مربوطاً .
كوني واثقةً ، واستسلمي ، كتفاً عاريةً ،
للموجة التي تتّسع في صيفٍ بلا نهاية ،
نامي ، إنّه الصّيف في أوجه ؛ وليلٌ
بشدّة الضّوء ؛ ويكاد يتمزّق
ليلُنا الأبديّ ؛ تهمّ المصريّة ، أن تنحني علينا
باسمةً .

سلامٌ ، فوق الموج الذّاهب .. الزّمن يشعّ .
كأنّ الزّورقَ توقّف .
لم يعد يُسمَعُ غيرُ الماء اللاّنهائي
يرتمي ، يتفكّك على المنحدر المقفر .

النّار ، أفراحها ذات النّسغ الممزّق
المطر ، أو ربّما لا شيء غير الرّيح على القرميد .
تبحثين عن معطف السّنة الفائتة .
تأخذين المفاتيح ، تمزجين ، تتلألأُ نجمة .

ابتعدي
في الكروم ، نحو جبل فاشير (*) .
في الفجر
ستكون السّماء أكثر سرعةً .

دائرةٌ
تجلجل فيها اللاّ مبالاة .
ضوءٌ
يحلّ محلّ الله .

شبه نارٍ ، أترين ،
في دَلْوٍ ماء المطر القاتم .

. . . .

لكن ، فرح الحلم ،
في النّار القاتمة الأخرى الّتي عادت تشتعل ،

---

* Vachères

كانت خادمةٌ تسيرُ مع مصباحٍ
بعيداً أمامنا . كان الضّوء أحمرَ
وكان ينْسابُ
في ثنايا الثوب على السّاق
حتّى الثلج .

نجومٌ ، منتشرة .
السّماء ، سريرٌ مُشَعّثٌ ، ولادة .

وشجرة اللّوز ، كبرت
بعد سنتين : الموج
في ساعدِ النّهر ذاته ، أكثر غموضاً .

. . . .

يا شجرة اللّوز المزهرة ،
ليلي بلا نهاية ،
كوني واثقة ، استندي طفلةً
إلى هذه الصّاعقة .

يا غصناً من هنا ، محترقاً بالغياب ، اشربي
بزهركِ الزّائل من سماءٍ تتغيّر .

. . . .

خرجـــت
إلى كونٍ آخر . كان هذا
قبل النّهار .
ألقيتُ ملحاً على الثلج .

أصرخ ، انظري
كان الضوء
يحيا هناك ، إلى جوارِنا ! هنا ، زادهِ
من الماء ، لا يزال متجلّياً . هنا الحطبُ
في المخبأ . هنا ، بعض الثّمار
للجفاف في ارتجاجات سماء الفَجْر .

لا شيء تغيّر ،
الأمكنةُ ذاتُها والأشياء هي هي ،
والكلماتُ هي نفسها تقريباً ،
لكن انظري ، فيكِ ، فيّ
المُشتَرك واللاّمرئيّ يجتمعان ..

وهي ! أليست هي
من تبتسم هناك (« أنا الضّوء ،
نعم ، أقْبَلُ ») في يقين العتبة ،
منحنيةٌ ، تقود خطواتِ
ما يُخيّل أنه شمسٌ طفلةٌ على الماء القاتم .

. . . .

أصرخ ، **انظري** ،
شجرة اللّوز
تتغطّى فجأةً بالآف الأزهار .
هنا ، الكثير العُقد ، الأرضيّ أبداً ، الممزق
يدخل إلى المرفأ . أنا اللّيل
أَقْبَلُ . أنا شجرة اللّوز
أدخل مزيّناً إلى غرفة الزِّفاف .

وانظري ، أيْـــد
أكثر علوّاً في السَّماء
تـــأخـــذ
كما تعبر مُزْنَةٌ ، من كل زهرة :
الجزء الذي لا يفنى من الحياة .

تقسمُ ثمرةَ اللّوز
ـمٍ . تلمس ، تسحب الرُّشَيْم .
تأخذها مجروشةً
من عوالم أخرى
في أبد الزّهرة الزائلة .

. . . .

يا للّهب
الذي يمجّد فيما يلتهم ،

باللّرماد
الذي يجمع فيما يبعثر .

نعم ، يا لهباً يمحو
عن مائدة الصيف القُربانيّة
الحُمّى ، ورجفات
اليد المتشنّجة
لهبٌ ، لكي يغسلَ من ظلّنا
حجرَ السّماء النيّرة ، وليكونَ
إلهٌ طِفلٌ يلعب
في حَرافةِ النّسغ .
أنحني عليك ، أجمع ، جاثياً ، في دخانك
يا لهباً يمضي ،
نفادَ الصّبر ، الأُوارَ ، الحدادَ . الوحدة .
أنحني عليك ، أيها الفجر ، آخذ
بيديّ وجهك . ما أجمل الوقت
فوق سريرنا المقفر ! أضحّي
وأنت انبعاث ما أحرقُه .

لهــبٌ
غرفتنا السّنةَ الفائتة ، سرّيةٌ
كصدر زورقٍ يمرّ .

لهــبٌ الكأسُ
على طاولة المطبخ المهجور ،

في فَالْسانت ،
في الأنقاض .

لهبٌ ، من قاعةٍ إلى قاعة ،
الجِص ،
لا مبالاةٌ كاملة ، مُضاءة .

لهبٌ المصباحُ
حيث كان الله غائباً
فوق باب الإصطبل .

لهبٌ
كرمةُ البرق ، هنالك ،
في وَطء الحيوانات التي تحلم .
لهبٌ الحجرُ
حيث عملت كثيراً سكّين الحلم .

لهبٌ ،
في سلام اللّهب ،
حَمَلُ الذّبيحة بقي سالماً .

. . . .

متأخّراً ، كذلك ، أصرخ
بكلماتٍ تقبلها النّار .

أصرخ ، **انظري** ،
هنا تَرسّبَ ملحٌ مجهول .

أصرخ ، **انظري** ،
وعيكِ ليس فيكِ ،
عاليةٌ نظرتكِ
ليست فيكِ ،
عذابك ليس موجوداً فيك ، وفرحك أقلُّ وجوداً أيضاً .

أصرخ ، **أصغي** ،
توقّفت موسيقى .
حيثما كان ، في ما هو موجود ،
تهبّ الرّيح وتفكّك .
المسافة اليوم بين الحلقات
قائمةٌ أكثر من الحلقات ،
نرمي شبكةً لا تَلْتقط .
أن نكمل ، أن ننظّم
أمرٌ لم نعد نعرفه .
بين العين التي تنمو والكلمة الأكثر حقيقيّةً
يتمزّق نسيجُ ما يمكن إكمالُه .
يا لَلشّطْب ، يا لَلصّدأ
حيث أَثَرُ الماء ، وأثر المعنى
وقد ذابا يصبحان بلا حَدّ ،
اللهُ ، جدارٌ عارٍ

حيث للتّأكُّل ، والتّحزُّز
مظهرٌ مقفرٌ واحدٌ في جذعِ العالم .
لكم تأخّرَ الوقت !
يُرى إلهٌ يدفع شيئاً كمثل
زورقٍ نحو شاطئٍ لكن كلّ شيء يتغيّر .
انهياراتٌ على طريق البشر ،
وطْءٌ ، صخَبٌ في أسفل السّماء .
هنا المكان الآخر يعانق
اليدَ العاملة
— لكن حين تنحرف في الخطّ الغامض ،
تبدو كمثل الفجر .

انظري ،
هنا ، على أرض المعنى ، البائرة
على بضعة أمتارٍ من التّراب
كما لو أنّ النّار اشتعلت بالنار ،
وهذه النّار الثانية ، رَفْعُ حيازةٍ ،
كما لو أنّها لا تزال تشتعل ، في أعالي
نسيج ما هو موجود ،
النّسيج الذي تنفخه الرّيح .

انظري ،
الجدار الرّابعُ فُضٌّ ،
بينه وبين عمود الجهة الشماليّة

مكانٌ للعوسج
والحيوانات الخفية لكلّ ليل .
الجدار الرّابع والجدار الأوّل
انحرفا عن القيد
خاتَمُ الحضور انفجرَ
تحت الضَّغْط الصّخري .
أدخلُ إذن من الفُتْحة ذات الصّراخ السّريع .
أهذان مُكافِحان أرْخيا قبضتيهما ،
عاشقان يسقطان غيرَ مُطمَأْنيْن ؟
كلا ، الضّوء يلهو مع الضّوء
والإشارة هي الحياة
في شَجرِ شفافية الموجود .

أصرخ ، **انظري** ،
صارت الإشارة المكان .
تحت رواق الصّاعقة
المُشّقق
نحن موجودان وغير موجودين .
ادخلي معي ، أيتّها الغامضة ،
اقبلي بالفُتْحة الصارخةِ صرخةَ الجوع .

ولنكن أحدنا للآخر كمثل اللّهب
حين ينفصل عن المشعل ،

جملةَ الدخان المقروءةَ لحظةً
قبل أن تـَمـّحي في الهواء السيـّد .

. . . .

بلى ، جميع الأشياء البسيطة
أعيدت إلى وضعها
هنا وهناك ، فوق
ركائزها النـّاريـّة .

نعيش بلا جـَذْر
نعم ، الآن ،
نعبرُ ، يداً تثقبها
الأضواء الفارغة .

وكلّ ارتباطٍ
دخـــانٌ ،
لكنه يرتجّ نيـّراً ، كمثل
فولاذٍ يرنّ .

. . . .

لِنلتقِ
عالياً بحيثُ يفيض الضّوءُ
من كأس السّاعة والصّرخة ممزوجتين ،
تدفـّقاً نيـّراً ،
حيث لا شيء يبقى

غير الخِصْب كما هو ، مُشاراً إليه .
لِنلتقِ ، لنأخذ
بملء اليدين حضَورنا النقيّ العاري
على سرير الصّباح وسرير المساء ،
في كلّ مكانٍ حيث يحفر الزّمنُ أُخدودَه
في كلّ مكانٍ حيث يتبخّر الماءُ الكريم .
لِننقلْ أحدنا إلى الآخر كأيّ
إنسانٍ جميعَ الحيوانات والأشياء
جميعَ الطّرق المقفرة ، جميعَ الأحجار ،
جميع التدفّقات ، جميع المعادن .

انظري ،
هنا يزهر اللاّشيء ؛ وتويجاتُه
وألوانُه فجراً وغَسقاً ، تَقْدِماتُه
من الجمال السرّي إلى المكان الأرضيّ
واخضرارُه الدّاكن أيضاً ، والرّيح في أغصانه ،
إنه الذّهَبُ الذي فينا : ذَهبٌ بلا مادّة ،
ذهبٌ لا ليدوم ، لا ليملك ،
ذهَبُ القبول ، اللّهب الوحيد
في حضن الإنبيق ، المتجلّي .

وما أثمنَ النّهار الذي سينتهي ،
وكم هي عاليةٌ صِفةُ هذا الضّوء ،

وما أبسط بلّور هذه الأشجار ، الذي اصفرّ قليلاً ،
وهذه الطّرق بين الينابيع ،
وكم هي سارّةٌ واحدها للآخر
أصواتُنا الّتي عطشت لتجد نفسَها
وتاهت جنباً إلى جنب ، طويلاً ،
متقطّعةً ، غامضة .

حتّى لتقدرين أن تُسمّي اللهَ هذا الإناء الفارغ ،
الله غير الموجود ، لكنه يُنقذ العطيّة ،
الله الذي بلا نظر لكنّ يديه تعقدان من جديد ،
الإله السحابةُ ، الإله الطفل ولكي يُولَد أيضاً ،
الإله سفينةً للألم العتيق المُدرَك
الإله قبّةً لنجمة الملح غير اليقينيّة
في التبّخر الذي هو هنا
العقلُ الوحيد الذي يعرف ويبرهن .

. . . .

ولتكن أيدينا في بحثها الواحدة عن الأخرى
الحجرَ العاري
والفرحَ المشترَكَ
وحِضْنَ العشب

ذلك مع أننا أنتِ وأنا
نصرخ ، لسنا إلاّ
حلقةَ حديدٍ نيّر
تبدّده الرّيح

مع أنّنا لن نعرفَ
عاجلاً في السّماء
حتّى إن كانت حدثت هذه الصّرخة
التي كانت سبباً ،

مع ذلك ، وقد وجدت أيدينا نفسها ،
تَرْضى أبديّاتٍ أُخرى
لِلرّغبة أيضاً .

. . . .

ولتكن أرضنا
الضّوءَ الذي لا يكتمل للمنجل
الذي يحصد الزّبد

وليس لأنّ صاعقتَها الوحيدة
حقيقيّة ،
مع أنّ الفراغَ ، نيّراً ،
هو سريرُنا

وأنتِ قربي
بسيطين -- لسنا فيه
إلاّ دخانَ ذبيحة ،
مُطْفَأ ،

لكن من أجل نُشاره ِ
الذي يجمعنا ،
قمح شفافية
للرغبة أيضاً .

. . . .

أبديّةُ صراخِ
الطّفل الذي يبدو أنه
يُولَدُ من الألم
الذي يصيرُ ضياءً .

تهبط الأبدية
في الأرض العارية
وترفع المعنى
كمثل المِعْزَق .

. . . .

وانظري ، الطّفل
هناك ، في شجرة اللّوز

واقفـــاً
كمثل مراكب عديدة تَصل حالمةً .

يصـــعد
بين القمر والشمس . يحاول أن يوجّه صوبَنا
في الدّخان
نارَهُ ، ضاحكاً ،
حيث للملاك والأفعى الوجهُ نفسهُ .
يقـــدّم
في باقة الكلمات ، التي أزْهرت ،
ثمرَ الشجرة ، مرّة ثانية .
والبَنّاءُ
ينحني نحو قاع الضّوء .
ينتزع مِعْزقُه الأنقاضَ
من أجل الطّفْح المستحيل .

بمعزقهِ المتألّق ،
كأنّه سماءٌ أخرى ، يتحرّى
بحديدهِ السّابق على حلمِنا
تَحت العَوسج ،
في طبقة النّار وما لم يُخلَق .
يقتلـــع
خصلةَ النّار ، البيضاء
من خفْق اللاّمخلوقِ بين الحجارة .

يصـــمت .
ظهيرةُ كلماته القليلة ، لا تزال بعيدة
في الضّوء .

لكن ، آجِلاً ،
سيكفيه احمرارُ السّماء ، الباهت
من أجل أَبديّة العودة
في الحجارة ، المُتَضخّمة
بجاذبيّة القمم التي لا تزال نيّرة .

. . . .

لأنني لست إلاّ قوة اللاّشيء
فمَ اللاّشيء ولُعابَه ،
أصرخ ،
وفوق وادي الأنت ، الأنا .
تبقى صرخة الفرح في شكلها النقيّ .

. . . .

بلى ، أنا حجارة المساء المضاءة ،
أَرْضَى .

بلى ، أنا حُفْرة الماء
الأكثرُ اتّساعاً من السّماء ، الطّفلُ
الذي يُحرّك وحلها ، أنا سوسنُ الماء

ذو الانعكاسات التي لا ترتاح ، والذي لا ذكريات له ،
أنا أرضى .

وأنا النّار ، أنا
حَدقَةَ النّار ، في دخان
العشب والعصور ، أرْضى .

أنا السّحابة
أرضى . أنا نجمةُ المساء
أرضى . أنا عناقيدُ العوالم التي نضجت ؛
أنا رحيلُ
البنّائين المتأخرين نحو القرى
أنا هديرُ الشّاحنة التي تضيع ،
أرضى . أنا الرّاعي ،
أدفع التّعب والرّجاء
تحت قنطرة النجمة نحو الإصطبل .
أنا ليلُ آب ،
أصنع سريرَ الحيوانات في الإصطبل .
أنا النّوم
آخذ الحلمَ في قواربي ، أرضى .

وأنا ، الصّوت
الذي تَشْتهى كثيراً . أنا البَيْزَر (*)

---

* مطرقة خشبية ذات رأسين .

الذي صَدَم ، بضرباتٍ صمّاء ،
السّماءَ ، والأرضَ السّوداء . أنا المُعَدّي ،
أنا زورقُ كل شيءٍ عبرَ كل شيء ،
أنا الشمس ،
أقفُ على ذروة العالم في الحجر .

كـلامٌ
أُنْزِل عن صليبه . قِنّبُ المَظْهر
المنقوعُ أخيراً .

صـبرٌ
أرادَ ، وعرف .
تـاجٌ
من حقّه أن يحترق .

عصاً طويلة
من الأوهام ، من السّلام
تجـدُ
وتلمس بوداعةٍ ، في المدّ الذي يمضي ،

كَتِفـاً .

صامتةً مرّتين ، عصراً
بفضل الصّيف المقفر ، ولَهبٍ
يفيضُ ، لا نعرفُ إن كان من هذا الإناء
أو من أعلى أيضاً في السّماء .

إذن نمنا : لا أعرف كم
صيفاً في الضّوء ؛ ولا أعرف
كذلك في أيّة فضاءاتٍ تتفتّح عيونُنا .
أُصغي ، لا شيءَ يهتزّ ، لا شيء ينتهي .

لا تكادُ الرّغبة تشكّل الصورة
حتى تدورَ لتتأمّل ، على محورها البسيط ،
صلصالَ يقظةٍ في الحلم ، يُبلّله الظلّ .

غير أنّ الشمسَ تُدندنُ على زجاج النّافذة
وبروحٍ مغلّفةٍ بأغمادِها الحُمْر ،
تهبطُ ، لكن في سلامٍ ، نحو أرض الموتى .

. . . .

فوقي وحيداً ، حين كنت أرسم
إشارةَ الرّجاء في زمن الحرب ،
كانت غيمةٌ تطوف سوداء والرّيحُ
تبدّد بأضواء كبيرةٍ العبارة الباطلة .

فوقنا كِلينا ، نحن اللّذين أردنا
العقدةَ ، الانفكاك ، طاقةً
تتزايد بين خاصرتين عاليتين قاتمتين
وحدث ، أخيراً
ما يُشبه الاختلاجَ في الضّوء .
بلدانٌ أخرى ، جبالٌ تضيئها
السّماء ، بحيراتٌ فيما وراءها لم يُقترَب منها ، شطآن
جديدة — سَكينةُ آلهةٍ يَنسِلون ،
كان البرق سيصيرُ عِلّة نفسه
وفوق الطّفل الذي يلعب
حلقة هذه الغيوم ، النّار النيّرة
التي تبدو أنها تتمهّل هذا المساء ، كمثل بُرْهان .

. . . .

غيومٌ ، نعم ،
الواحدة للأخرى ، سفنٌ عند وصولها
في علاقة موسيقى . أحياناً ، يبدو لي
أنّ الضّرورة تتحوّلُ

كما في آخر حكاية الشتاء
حين يتعرّف كلّ واحد على الآخر ، حين نتعلّم
من مستوى إلى مستوى في الضّوء .
أنّ هؤلاء الذين رماهم الكِبْرُ والشكّ
مِن إقليمٍ إلى آخر في القول الغامض
يلاقون أنفسهم ، يعرفونها . الكلامُ في هذه اللحظة
صمتُهم . والصّمت كلماتهم القليلة التي
لا نعرف إن كانت فرحاً أو ألماً
« مع أنّها يقيناً أقصى هذا أو ذاك » .
يبدون ، يقول أيضاً
شاهِدٌ ، يتأمّل ، ويبتعد
أنّهم يسمعون خبرَ
عالَمٍ مُفْتَدَىً أو عالَمٍ ميت .

غيـــومٌ
وهذان اللّونان الأرجوانيان هناك أبٌ ، ابْنَةٌ ،
وذلك الآخر الأقرب ، تمثالُ
امرأةٍ ، أمّ الجمال ، أمّ المعنى
التي نراها مع أنّها جامدة منذ أمدٍ
مخنوقةً في صوتها من عصرٍ إلى عصرٍ ،
مرفوضةً ، مُنعشَةً
بسحر النّحت وحده ،
تحيا ، تهمّ أن تتكلّم . صاعقةٌ عيناها

اللّتان تتفتّحان في هاوية الأوكسيد الكوبالتيّ النيّر ،
لكنهما صاعقة باسِمةٌ كما لو أنّها ،
وقد قُضي عليها بأن تتبعَ الحلمَ في المدّ العقيم
لكن بعد أن اكتشفت الذّهبَ في الرّمل البِكْر ،
تأمّلت ورَضيت .
زِدْ على ذلك أن الرّجلَ يقترب ، وجهه
الممزّق يهدأ بفرحٍ زائد .
صَعَد درجاتِ السّاعة التي تتدحرج
في عَصْفٍ متواترٍ ، ذلك أنّ السّماء تتغيّر ، اللّيل يجيءُ ،
ويترنّح حيثُ تنتظره ، ليلاً مكوكَباً
يتّسعُ ، موسيقى . ينهض ،
يلتفت نحو الكون . ملامحه تتلألأُ
بوميض المطلَق ، الفوسفوري ،
ويعودُ النهارُ لأجلهم جميعاً ولأجلنا ، كوريدٍ
يمتلىء مِن جديدٍ بالدّم — ذروةَ أشجارٍ
يصدّعها البرق ، أنهاراً ، قصوراً
في سلام ، من الشاطىء الآخر . نعم ، أرض
على أعمدتها الغيميّة الحلزونيّة .

وما يهمّ ، إذا ترنّح الإنسان ، والسّماء في دورانها ،
مرّةً ثانية ، يقول للمرأة
نصفِ النّزِقة ، الغيمة السّوداء ،
بضعَ كلمات لا تُسمَع ثم يستدير ،

يبتعدُ في جهاتِها التي تتبدّد
وينحني صوبَها
ويخبىء وجهه الباكي في يديها النقيّتين .

إذ أنّ سفينةً من جهة **الغرب** ، الذي لا يزال نيّراً ،
بقاع هادىءٍ ، يشبه صدرُها
ناراً ، دخاناً ، ظهرت
كتاباً أُعيدَ فتحه ، غيمةً حمراء ، في ذروة
الموج الذي يتضخّم . تأتي ،
تدور ، ببطء ، لا تُرى
جسورُها ، صواريها ، ولا تُسمَعُ صَرَخاتُ
بَحّارتِها ، ولا تُسْبَرُ
أوهامُ وآمالُ أولئك الذين
في الأعلى يتجمّعون في المقدّمة ، بعيونهم الضخمة ،
ولا الأفق الآخر الذي يتبيّنونَهُ ،
أو لعلّه الشاطىء ، كذلك لا تُعرف
أيّة مدينة محترقة توجّب عليهم أن يهربوا منها ،
أيّة **طروادة** لا تكتمل ؛ لكن نشعر
أنّ في هذا السّاعد العاري ينبض أوارُ
الصّيف ، قلقُنا . . . آمني ، يمكن أن ينمو
المعنى في كلماتكِ ، أيّتها الأرض المخلّصة ،
كمثل الشّفافية في عنقود
الصّيف ، ذلك الذي يشيخ . تكلّم ، غَنِّ ، أيها الطّفل ،

وأحلم في الحال أنّ الكَرْم المعترِشَ
الأرضيَّ يتألّق ، وأنّ ثِقلَ
النّجوم المشدودة إلى البرد ، الحجارة
الكثيفة كلغاتٍ غيرِ مُوحَاة .
والذّروات التي لا يزال ليلنا يأخذها .
صرخات اليأس وصرخات الفرح أيضاً .
الحيوات التي تنفصلُ في اللّغز ،
الأخطاء ، الانهيارات ، الوَحْشات ،
لكن الصّباحات أيضاً ، الحدوسُ ،
المياه التي تتفكّك بعيداً ، الاكتشافات ،
الأطفال الذين يلعبون خِفافاً بمقدّمات سُفنٍ تعبر ،
النّيران في البيوت المفتوحة ، النداءات
مساءً ، من بابٍ إلى باب في السّلام ،
بلى أنّ هذا الحقيقيّ ، أن هذا المكان ، الخيْرَ تقريباً ،
نضجَ ، أنّه لم يكن إلاّ العنقود الأخضر .

ألم يكن كلّ شيءٍ متماسِكاً ، جاهزاً
مع أنه ، يقيناً ، مختوم ؟ شمسُ الصّباح
وشمس المساء ، المنوَّر ، تقودانِ جيّداً ،
كثورين أعميين ، محراث
الذّهب الكونيّ غير المكتمل ،
وترنّ على جبهتيهما هذه السّلسلة من الكواكب
اللاّ مبالية ، صحيحٌ هذا : لكنهما يتقدمّان

كمثل ماءٍ يتبخّر ، وكملحٍ يترسب ،
ثمّ ألست أنتِ هنالك ، أيتّها الأمّ التي تتلألأُ عيناها ،
يا أرض ، من تقودينها ،
الثّوبَ الأحمرَ الممزّقَ ، كلاّ المشقوق ،
تحت عقْدِ النّجمةِ الوليدة الأولى ؟

غير أنني دائماً وبشكلٍ جليّ أرى كذلك
البقعة السوداء في الصّورة ، أسمع الصّراخ
الذي يخترق الموسيقى ، أعرف فِيّ
بؤسَ المعنى . كلاّ ، ليس لمكانِنا ،
في مرَضهِ ، أن يطمعَ بالتجليّات . أقول الأملَ ،
فرحَه ، نارَه نفسها العنقوديّة الكبيرة ، حين
يدقّ برقُ كلّ ليلةٍ على زجاج النافذة ، حين تتجمّع
الأشياءُ في البرق
كما تتجمّع في مكان الأصل ، والطرّق
ستلمعُ في حدائق البرْق ، الجمالُ
سيحملُ إليها خطواتِه التّائهة . . . أقول الأحلام ،
لكن ليس إلاّ من أجل راحةِ الكلمات المجروحة .

وأعرف حتّى أن أقول ، وأنا مُغْرًى
بأن أقول لكم أحياناً ، هذه الإشارات المضطربة ،
الصّارخة ، القاعات المرسومة ،
السّاحات الداخليّة الظّليلة ،

جدارةَ الصّيف على البلاط النديّ ،
صوت الماء شبهَ الغائب ، النّهدَ
الشبيهَ بالماء ، الواحدَ ، اللاّ نهائيّ
المنفوخ بصلصالٍ أحمر . أن أعطيكم
حلقة سماوات النّخيل ، بل أيضاً
حلقة هذا الكاحل ، الثقيلة ، التي تُزلّجها
يَدُ فُتورٍ ولا مبالاةٍ
على قوس قدمٍ نحيلةٍ ، في حين أنّ
الفمَ المُنْفرِجَ لا يبحث إلاّ عن
ذاكرة فمٍ آخر . « انظرْ إليّ
يقول الصّوتُ العَدمُ عبْرَ صوتي ،
أكذبُ ، إلى ما لا نهاية ، لكن أعْجِب ،
لست أنا لكن أطبق عينيّ
أحني إن شئتَ رقبتي السّوداء
وأغني ، إن أردتَ ، مُتعبَ الرّوح ،
أو أتصنّعُ النّوم » . . . في الغسَق
يَتتوّج الزّنْبورُ بالضّوء
يُهيمن سيّداً في لحظة
صعوده المتردّد على العنقود .
كلاّ ، لم نَتشْفَ من الحديقة ،
كذلك ، لا يتوقّف دفق الحلم ،
منتفخاً بماءٍ أسود ،
حين تتفتّح العيون .

كذلك سنملأ ، بعكس الضوء ،
في الدَّفْقِ الأَسْفلِ ، المتلألىء ،
زورقَنا الهادىء القرار بالثّمار ، بزهر
كمثل النّار ، حمراء والتي سيبدّد دخانُها
بصوره الفظة
السّاعاتِ والشواطىء . وما أكثر الآمال
الطفوليّة ، تحت الأغصان ! ويا للرقيّ
في الكلمات الرّاضية ! مع أنّ اللّيل
يمسّنا هناك بجناحٍ مجهول
ويغطّ هناك منقاره ، في الماء السّريع .

. . . .

« كنتُ أودّ أن أغنيهُ بأن لا يكون إلاّ صورة
لكي لا يكون إلاَ واحدةً ، ولكي تترك نارُ
الزّمن ، إذا اشتعلت في الأجسام ، في الصّرخات ، في الأحلام نفسها
الشكلَ الذي كنّا نلتقي فيه ، كاملاً ،

كذلك كنتُ أجعل من نفسي ذخره من الماء النقيّ
وأجعل بلا حدٍّ عينيه اللّتين كانتا تنحنيان عليّ ،
كان فمي يحبّ فمه ذا اليقين السّريع ،
وكان فرحاً لي أن أنتظر وأعطيه .

ـ ينام . أنا نسيجُ الباب
الذي بُلّل بالماء من أجل سماءٍ أخرى ،
أخيطُ أصيلَ ما وراء البحر ،
أنا لَعِبُ بعض الظّلال على جسده .

يشيخ . كبرت السّاعة حتّى فنيا وهي تدحرج
ضجيجَها اللّيلي الذي يجيء في الحجارة . أحياناً
يترك ذراعه تسبح في هذا الماء الأكثر برودةً ،
لا أعرف إن كان في الحلم ولا أعرف نفسي . . . »

. . . .

« هل جئتَ من أجل هذا الكتاب المغلق ؛
لا أرضى أن تفتحه .
هل جئت لكي تفضّ خاتمه
الملتهب ، الذي يثقبه اللّيل ، المنحني ، ورقاً
تحت العاصفة التي تطوف ولا تنفجر ،
لا أسمح لك بأن تلمس شمعه .
هل جئت « لا لشيء إلاّ لكي »
تستشفّ ، كما في الحلم ، كلاماً
ينمو متجلّياً في فجر المعنى
(وأعرف جيّداً أنّ سِكّة المحراث عملت
طويلاً في هذا الأمل ، وأنها إذ سقطت مجدّداً
في الجملة الأرضيّة ، تلمعُ هناك
ممزّقةً على حافّة ضوئي) ،

أبقى صامتاً في صوتك الذي يحلم . . .
هل جئتَ لكي تدمّر المكتوب
(كلّ مكتوب ، كلّ أمل) ، لكي تعثر
على السّطح الهادىء الذي تفضّضه النّجمة
وتشربَ الماء الذي يجري وتستحمّ
تحت القبّة حيث ينضج الثّمر لا المعنى ،
لم أسمح لك أن تنسى الكتاب . »

. . . .

يا للأحلام ، الأطفال الجميلين
في ضوء
الثياب الممزّقة ،
الأكتافِ المرسومة .
« بما أنه لا معنى لأيّ شيء ،
يَنْفُثُ الصّوتُ ،
سواءً كما نرسم أجسامنا
بغيومٍ حمراء .
انظر ، أضيء هذا النّهد
بشيءٍ من الصلصال
وأخلّص الفرح ؛ الذي هو اللاّشيء ،
من أن يكون الخطيئة »

. . . .

يمشون ، حُفاةَ الأقدام
في غيابهم
ويبلغون شواطىء
النّهر الأرض .

يطلبون ، يُعطون ،
العيون مطبقة ،
والكواحل حمراءُ
مِن وَحْل الصّور .

لا شيء سبَقَ ، لا شيء ينتهي
يتقاسمون ، ماءً ،
يستلقون ، الخاصرة العارية
تعكس النّجمة .

يعبرون ، يشاركون
الماءَ المتلألىء
يشاركونك ، أنت أيّها الحجر المرميّ ،
والعوالم التي تَتّسع هناك .

. . . .

وإلى خطواتهم تَنْضمّ
إلاهَةُ النّبات النقيّة

الّتي تعطي خشخاشها
لمن يطلب .

والجمال الرعويّ
عارٍ ، لكي يفتحَ
للحيوانات المبلّلة ، في برد النّهار ،
سُورَ الشّيء البسيط .

– لكن أيضاً جمال الدُّخَانات
الرمـــاديّ
الذي يتلوّى ويتفكّك
من أقلّ نَفْخةٍ

والمجنونة الّتي تتكلّم
بأفواهٍ عديدة
والّتي تهزّ ، منحنيةً ،
شعرَها . . .

. . . .

« لن تمسّني
صيفاً ولا شتاءً ،
ولا حين يكبر القمر
أو يتلاشى .

لا بيدِ الرّغبة
لا بالصّورة
لا بالفم الذي يحبّ
أو ممزّقاً .
ســتنام ،
لكن ســأعود
إلى شفتيك ،
ستلتفت
متنّـهداً
كأنّك تنحني ، يا مسافري ،
على نَبْــعٍ ،
ســأكونُ هناك
سيلامس فَمك أجفانيَ المُطبَقة . »

. . . .
. . . .

هنا ، المهمّة
التي لا أعرف أن أكملها . هنا ، الكلمات
التي لن أقولـَها .

هنا ، حفرة الماء
الأسود ، في الغَيْمة .

هنا ، في النّظر ،
النّقطة العمياء .

. . . .

لكن ، انظري ،
نوافذنا هنالك لا تزالُ مُضاءةً
بعد كلّ شيء بشمس المساء .
وزجاج نوافذنا كمثل الماء ، مضطربٌ
لكنّه أيضاً متحوّل ، تَخشّره
ذراعُ الضّوء المتأمِّلة
لغزاً ، شمساً محلومة ، يعبرُ الزّورق الأحمر
عارجاً بموته . لكن هذا البلد
هو ، هادئاً ، خطّ سَيْرهِ ، حيث البيتُ
تنكشف النّجمة ، التي تعلو
من أجل السّلام فوق العشب ، في النّفَسِ
المتواتر أخيراً ، لآلهةِ الحديقة المقفرة .
لنقترب . عن كثبٍ ينطفىء زجاج النوافذ
لكنّ الذّهب وقد تراجع إلى شاطئه الآخر
تَرك لكي يزهرَ في رملها البِكْر
اللاّ شيءَ ، الذي هو الدّالية . أوه ، انْحني ،
اسندي جبهتَك على الزّجاج ! إنّه الخيرُ ،
كلّ مكانٍ حيث الولادة تجيء في المدّ الذي لا يهدأ ،
انظري إلى الثّمر الحقيقيّ ينمو ، أنت التي ترضى ،

انظري إلى غُصْنيّاتهِ تلمعُ في القاعة القائمة .
تنحني ، تأخذين
شيئاً من ألوهة عشبةٍ يابسة
وفي وَفْرة الأريج المدعوك
يبطل انتظار الحياة التي تصرخ جوعاً .

للشفاه التي تسأل شفاهاً أخرى ،
للماء الذي يريد المنحدرَ في الحجارة ،
لاندفاع الحَملِ ، مخلوقاً من الفرح الصافي ،
للطفل الذي يلعبُ بلا حدٍّ على العتبة
حقّقتِ الأمنية لأنك تستقبلين
الأرض ، التي تَزيدُ الرّغبة .

تنحنين . . . الرّيحان ، ثم تبكين ،
يا صديقتي ، ليس هذا إلاّ الصّيف الذي يهتزّ
كما يهتزّ مصراعٌ تضربه الرّيح
في محور رجائه الممزّق .
لكن ما أصفى هذا النّهار ! تمرّدُنا
تشربُه مَساميّةُ الضّوء
وتجهّمُ جناح السّماء ،
صراخه ، الرّيح التي تستأنف هبوبَها ، هذا كلّه
يقول الحياة المهيّأة أخيراً لذاتها وليس الموت .

انظري ، كان كافياً أن نَشِق ،
أخذ الطفل يدَ الزّمن الهرم ،
يدَ الماء ، يدَ الثّمار في الورق
يقودهنّ خُرْساً في السرّ ،
ونحن اللّذان ننظر من بعيدٍ ، يسهّل لنا كلّ شيء
أن نلاقيَ نظرتَه التي لا تَرمُش أبداً .

. . . .

الرغبة تصير حبّاً بطرقِها القاتمة
في كآبة العصور ؛ وبالجمالِ
المُدرَكِ ، بِحَدٍّ مقبولٍ ، وبالذكرى
الحبِّ ، يحمل الزّمنُ الطفلَ ، الذي هو الإشارة .

وفينا ومنّا ، نحن من نبقى
غامضين أحدُنا للآخر ، وهذه
خطيئة لكن محتومة ، ولأن الكلام
لا يكتمل كمثل الكائن أيضاً

فليأخذ فرحُه شكلاً : لكي نستبقي
الماء في كأسه الهاربة ؛ لكي نعكس
النّارَ ، التي هي اللاّ شيء ؛ لكي نقدّم على الأقلّ أعطيةً
إلى الضّوءِ ، فكرةَ المعنى .

. . . .

غيومٌ
وتلك ، الأكثرُ احمراراً في البعيد ، بلى ، إلى الأبد ،
الماءُ والنّار
في إناء الأرض ، الدّخانُ
إعصارٌ كأنّه جمرٌ خالصٌ
حيث سيثور اللّهب . . . لكن هنا
التّرابُ ، كمثل السّماء ،
تزرعه الحجارة بلا نهاية ،
بعضها أحمرُ
يحمل ملامحَ الإشارات التي نحلمُ بها .

ونفردها عن الطّحالبِ ، عن العوسج
نأخذها ، نرفعها . انظري !
هنا تخطيط ، كتابة ،
هنا اهتزّ الصّراخ فوق محور المعنى ،
هنا . . . كلاّ ، هذا لا ينطبق ، التّحزيزُ
ينحرف ، أيضاً في ذروة
الجمر الصافي ، في الفكر ،
حيث التكرار ، التّشابُه
كانا سيكرّران أمل يدٍ عاملة .

الصّمت
كمثل جسرٍ منهدمٍ فوقنا
في المساء .

مع ذلك نجمع ،
يا صديقي ،
كثيراً ومزيداً من هذه الحجارة ، حين يبقع اللّيل
النسيجَ الأحمر ، ثاقباً أصواتَنا
وقد أخفاها عن أيدينا القلقة .

ونحن غيومٌ ، تقودنا نارُها
حين نعودُ ، مُثْقليْن ،
إلى البيت « هنالك » . حين نعبر
مُقفريْنِ
في زجاج النّوافذ الملتهب ، في هذا البلد
الذي يشبه اللّغة : مضاءٌ
بعيداً ، حجريٌّ هنا . حين نذهب
إلى أبعدَ أيضاً ، منقسميْن ، ممزّقيْن ،
والطفل يجري أمامنا في فرحه
إلى حياته المجهولة ،

بسيطيْن ، — كلاّ ، نيرّيْنِ ،

في سلام ،
جامدَيْنِ أحياناً في مفارقَ ،
بين أعمدة نار الصّيف الذي يوشك على الانتهاء ،
في رائحة النجمة والرّماد .

. . . .

« هذا كلّه » ، نعم ،
خَدائِعنا ، أفراحنا ،
تحسّراتنا الأبدية ،
كلاّ ، قبولنا ، يقيننا ،

هذا كلّه ، الصّيف ،
المتفكّك
الذي يقتحم عيوننا
بمائه المفاجىء .

وخارجاً اللّيلُ ،
كلاّ ، النّهارُ
الذي يُعلن ، لَزجاً ،
ولادةً .

. . . .

الصّيف :
البومة الغابيّة التي يسمّرها
هناك ، على العتبة ،
الحديدُ في سلامِ النجمة .

نعم لزجاج النّوافذ
إذ يحاول الهرب
باصطدامات صمّاء
– صارخاً أحياناً
برأسٍ أعلى .

نعم، في اللّيل
حيث يبحث التلفزيون عن الشاطىء ،
حيث ينحني الرجاء العتيق على
شفتي الصورة ،
يعضّ
في وحدة الدّم
كتف الصّورة ، العارية .

نعم ، ليلاً
حيث حاجة المعنى تضغط طويلاً
على نهد الصّورة البارد ،
ووحده ، بقلبٍ منقبض ،
يَحيدُ ، تحت كوكبة الرّغبة الباطلة .

. . . .

نعم ، عبر الإله
الذي يشردُ في مظهر حَمَلٍ
قربَ الشاحنة الصّغيرة
تحت المصباح المشتعل طول اللّيل .
أقف ، يقف ،
أتقدّم ، ويتشتّت
هذا الوجه ، مضيئاً

ساقيَ ، التي تدفعه
في الجليد الذي يَصِرُّ خارجَ العالم .

. . . .

نعم ، عبر الصّوت
العنيف ضدّ صَمْتٍ . . . ،
عبر اصطدام الكتف
عنيفةً بمسافةٍ . . . .
— لكن بصاعقة اللاّمبالاة تشاركين ،
أيتها السّماء السّوداء فجأةً ،
خبز وحدتِنا على المائدة .

. . . .

نعم ، عبر الباب الذي يهتزّ
من نَفَسٍ

المظهر المثقوب
(وإن خرجتُ سأَعْمى
في اللّون) .

نعم ، عبر الاهتزاز الذي يبدو
أحياناً أنه انتهى .
نعم ، عبر الحُمّى التي تعودُ متأخرةً إلى العالم .

. . . .

نعم ، عبر المساء
حين يُحرّك رمادَ اللّون
معجّلاً بيديْ أعمى
صعودَ اللّهب بلا ضوء .

(الصّاعقة ،
الشجرة التي صرخت فوق عنقها العاري ،
وأنـــت
ما يبقى من السّماء .)

. . . .

نعم ، عبرَ الذّروة المضاءة
ساعةً كذلك .

نعم ، عبر اليد
الّتي ترسم بعنفٍ خطّ الذّروة
بلا نهاية ،
بلا مستقبل ،
غارقةً في حبرٍ مضيءٍ حيناً ، قاتمٍ حيناً
ولا مكان له في الضوء الذي يمضي وحيداً .

. . . .

نعم ، عبر هذه النّهارات
حيث كان الرّعدُ يشرد
منذ ما قبل الفجر .
عبر طُرقي في الأعشاب المبلّلة
الّتي أمالَهَا اللّيل تحت عجلاته الحجريّة .

نعم ، عبر عوسج
الذّروات في الحجارة . عبر هذه الشجرة ، واقفةً
في وجه السّماء .
عبر اللّهب ، في كل مكان ،
والأصواتِ ، كلّ مساء ،
الصّاعدة من زواج السّماء والأرض .

(في وقتٍ متأخر ، حين يكنسُ الإسفنجُ على المائدة

التي تشعّ قليلا
بقايا الخبز والخمر .)

. . . .

نعم ، عبر عموديْ الخشَب
المهجوريْن ،
نعم ، عبر الملح
المتجمّـد ، في علية المطبخ المدهونة بالأسود ،
نعم ، عبر كيس الجِص : مفتوحاً ، متجمداً
بذرةَ ما لا يُملَك ، المضيء .

نعم ، عبر الثقب
قرب الموقد ، الذي لا يزال فاغِراً
(والمعول والرفش بقيَا هنالك
على الجدار : للبناء المُنادَى ،
الذي لم يكد يعبر ، صامتاً ،
عملٌ آخر في قاعةٍ أخرى .)

. . . .

نعم ، عبر هذا المكان
الضائع ، غير المُتخلّص
من العوسج ، ومن رماد الأمل .
عبر هذه الرّغبة ، المغلوبة ، كلاّ ، المُستنفَدة

ذلك أنّا كنا سنحيا بعمقِ الأيامْ .
التي ارتضاها لنا هذا الضّوء !
كان الطقس دائماً جميلاً ، جميلاً حتّى العَياء ،
كان الرّيفُ المحيطُ مقفراً ،
لم نكن نسمع إلاّ تنفّسَ الأرض
وصريرَ سلسلة البئر ، عِلّةِ الزمن
الذي كان يسقط من الدّلو كمثل إفراطٍ سماوي .
كنّا نعمل هنا أو هنالك ، في قاعاتٍ كبيرة ،
لم نكن نتكلّم إلاّ قليلاً ، بصوتٍ صَدِيء
كما يُخبّأ مفتاحٌ تحت الحجر .
أحياناً كان اللّيل يجيء ، من طرَفِ الأرْسانِ ،
امرأةً كاملةً مكلّلةً بالسّواد ، يقود حيواناتِه خُرْساً
في مياه الشّمس الثّابتة .

ولْيَنَمْ
في المطلق الذي كُنّا
هذا البيتُ الذي كان كمثل وادٍ
تضجّ فيه السّماء ، ويجيء إليه العصفور الحالمُ
ليشربَ الهدوءَ المعتم . . . البيت غيرُ المنكشف ،
الكبيرُ جدّاً ، الغامض جدّاً على خطواتِنا ،
لا نفعلُ أكثر من أن نلامس كتفه الدّكناء ،
لا نُشوّشُ ذلك الذي يغترفُ بِنَفَسٍ منتظم ،
من مُدّخراتِ حلم الأرض .

لنضعْ . وقد جاء اللّيل ، هذه الحجارة
حيث كنّا نقرأ الإشارة ، عند كتَفه المُقفر .
ما أكثر المهمّات التي لا تكتمل والتي كنا نقومُ بها ،
ما أكثر الإشارات التي لا تُسْبَرُ وكنّا نُلامسها
بأصابعنا الجاهلة والقاسية لجهلها !
ما أكثر التشرّدات وما أكثر الوحدة !
الذّاكرة مُرهقَة ، يقيناً ، الزّمن ضيّق
الطّريق لا نهائيّة" أيضاً . . . لكنْ للسّماء
حجارَة" أكثرُ احمراراً من جهة
المساء ، وفي حيواتِنا المراحِل
ضوءٌ ينمو أحياناً ويحترق .

. . . .

نعم ، عبر اللّيل
عالياً ، في غرفتنا الصّيفيّة
التي تمضي كزورق ، تتردّد أحياناً
في زبد السّماء (ولا أزال أراكِ
في المرآة ذات القصدير الممزّق ،
تفتقين ثانية" ، بعيدة" ، الثوب
الأحمر لهـــذه
السّنوات ، حينما كنتِ
تأخذين ، لا نهائية
كمثل نجمةٍ في زجاج النوافذ

بيد من حلمٍ غير مكتمل في
الدوّامـــاتِ
حيث يبزغ الفجر ، من النّوم
وردةَ كلّ نهارٍ إن لم تكن فانية .

كنت أنظر
للزورق الآخر يتراءى ، ناراً
هي أيضاً متردّدة
وهي أيضاً كاملة ، كمثل الحياة ،
في كرومِ جبل فاشير .

وأقدرُ تماماً أن أهبط
أيضاً ، وأعبرَ القاعات المظلمة ،
أفتحَ ، شأنيَ سابقاً ، أخطو هذه الخطوات
في كل نهارٍ جديد بين الدّوالي
في ثبات السّماء أبديّاً ،

الوقتُ جميلٌ
البيتُ استمرَّ كالنّجمة
تتابع الصّعودَ في السّماء الصّافية ،

وابنة فرعون تنام جيّداً هنا ،
نَهداها حُرّان ،

فوق هذا السّرير الذي يقوده
مَجْرى وَسط النّهر) .

. . . .

نعم ، عبر « الهُوْي الكبير »

وجان أوبري ، من أورغون ،
وطفلاه كلود ، وجان .
« قمنا ذلك اليوم
بعونٍ قربانيّ » . نسيت التاريخ .

. . . .

نعم ، عبرَ عقد العتبة
المنكسر
الذي عثرنا على حجره الناقص
ــ اجْرِ ، يا نَهْر السّلام ، جَدّدْ ازهرارَ
قرنفل هذا الشاطىء .

. . . .

نعم ، عبر زجاج النّوافذ المتلألىء
حيث يدُ الخارج البسيطة ، وقد أُعيد تشكيلُها ،
تقدّم الثّمرَ
(وهذا الزّورقُ أحمرُ ، شفقيّ ،
كأنّ ثمرَ الشجرة الأولى

أنهت يومَها في أغصان
ألم العالم . وهو يمضي
بتأمّلٍ نحو شاطىءِ آخر .)

نعم ، عبر هذه النّار
عبر انعكاسها الناريّ في الماء الوديع
عبر مكاننا ، الذي يمضي ،
عبر طريق النّار تحت الثمرة الناضجة .

. . . .

نعم ، عبرَ الأصيل
حيث كلّ شيء صامت ، لأنّه بلا نهاية ،
الزّمن ينام في رماد نار الأمس
والزّنبور الذي يصطدم بزجاج النّوافذ
كان قد خاط كثيراً من تمزّق العالم .
ننام في الغرفة العليا ، لكن نمضي
أيضاً ، وإلى الأبد ، بين الأحجار .

. . . .

نعم ، عبر الجسم
في العذوبة العمياء والّتي لا تريد شيئاً
لكنها تُكْمِل .

والأغصان على زجاج نوافذها أكثر قرباً
في أشجارٍ أكثر صفاءً . والثمار ترتاح
تحت عقد المرآة . والشمس
لا تزال عاليةً ، وراء سلّة
الصّيف على الطّاولة وبعض الأزهار .

. . . .

نعم ، عبر الولادة التي تصنع
اللّهب من لا شيء ،
وتمزج مُهدّأيْنِ
وَجْهينا .

(كنّا ننحني ، والماء
يجري سريعاً ،
لكنّ أيدينا ، المنكسرة هناك ،
أمسكت بالصّورة .)

. . . .

نعم ، عبر الطّفل

وعبر هذه الكلمات القليلة التي أنقذتُها
من أجل فم طِفْل . « انظري ، أفعى
طرف هذه الحديقة لا تغادر أبداً
ظِلّ البَقْسِ ، الباهت . رغباتُها كلّها
من صمتٍ ونومٍ بين الأحجار .

أَلمُ التسمية بين الأشياء
سينتهي . » تلك هي موسيقى في الكتف ،
موسيقى في الذّراع التي تحميها ،
كلامٌ على الشفاه المتصالحة .

. . . .

نعم ، عبر الكلمات ،
بضع كلمات .

(ويبـــدِ
يقيناً ، نرفع السّوط ، نُهين المعنى ،
نَـرْمـــي
قافلةَ الصّور كلّها بين الأحجار .
ـ باليد الأخرى ، الأكثر عمقاً ، نَستبقي .

ذلك أنّ من لا يعرف
حقّ الحلم البسيط ، من يطلب
تقويمَ المعنى ، تهدئةَ
الوجه المدمّى ، تلوينَ
الكلام الجريح بالضوء ،

هل سيكون هذا
تقريباً إلهاً ليخلق تقريباً أرضاً

يفتقد الرّحمة ، لا يصل
إلى الحقيقيّ ، الذي ليس إلا ثقةً ، لا يُحسّ
في رغبته المنكمشة على تميّزه ،
بانحراف الغيمة الأكبر .
يريد أن يبني ! ولو شيئاً لا يكون إلاّ
أثرَ صاعقة ، مُنْهَكاً ، لكي يحفظ
في الكبرياء عدمَ شكلٍ ما ،
وهذا حلم ، هذا أيضاً ، لكن دون سعادة ،
دونَ درايةٍ بالوصول إلى الأرض الموجُزَة .

لا ، لا تفكّكي
لكن خلّصي ، وطمئني . « الكتابة » ، عنفٌ
لكن من أجل سلامٍ له نكهة الماء العَذْب .

لِيَقُمْ الجمالُ ،
ذلك أن لهذه الكلمة معنى ، رغم الموت ،
بعملٍ لجمع جبالِنا
من أجل ماء الصّيف ، الضيّق ،

ولَيَسْتَدْعه في العشب ،
وليأخذ يد الماء عبرَ الطرُّق ،
وليقد الماءَ من هنا ، طفيفاً ، إلى النّهر الصّافي .)

. . . .

نعم ، باليد التي آخذها
على هذه الأرض .

وخارجــاً
البرقُ من جديد ،
منفلتاً ،
صارخاً من أسفل ، منزلقاً ،
مُزيلاً لونَ
نهاية السّماء في الحجارة .

عابراً من المخاضة
الجدولَ القليل العمق بين الحجارة .

. . . .

نعم ، بالجمال ، عارياً ،
مع الممزّق ، المرفوضِ في حركة الكتف .

نعم ، بكِ — متوقّفةً
في مخاضة السّماء ،
صاعقةً ، ثوباً مفتوحاً
على خصوبة الأرض ذات الثمار الغامضة .

. . . .

نعم ، بالموت ،
نعم ، بالحياة التي لا نهاية لها .

. . . .

عبر الأمس المتجسّد ، هذا المساء ، غداً ،
نعم ، هنا ، هناك ، في أمكنة أخرى ، هنا ، هنالك أيضاً

(ومن الكتاب المحلوم ، قَلَبتِ
النّار — الصّفحات .
أخذتْها من رقابها وأثقلتها
بِنَهشتها .
غابت ، وفقاً
لمحوره المائل
الذي لواها ، هكذا
سِرُّ الحبّ .)

. . . .

نعم ، بالخطأ ذاته
الذي يمضي

نعم ، بالسّعادة البسيطة ، الصّوت المُكسّر .

. . . .
. . . .

ينتفخ (نعم مجموعاً ، محترقاً ،
مبعثراً

ملح العواصف التي تعلو ، الانفراجات ،
رمادُ العوالم الخياليّة المبدّدة

فجرٌ ، مع ذلك ،
حيث تتمهّل عوالمُ قُربَ الذّروات :
تتنفّس، مستعجلةً
الواحد مقابلَ الآخر ، كمثل
حيواناتٍ صامتة .
تتحرّك ، في البرد
الأرضُ كمثل نارِ أغصانٍ مُبلّلة
النّار ، كمثل أرضٍ لُمِحت في الحلم) ،

ولتشتعلْ ، نعم ، تبيضّ ثم لتتدفّقْ
(نحيا ، غيوماً
مدفوعةً سِرّيّاً ، نتلألأ
ننتهي ،
جناحَ مستحيلٍ مطويّاً من جديد)
الموجة التي بلا حذر ولا حدّ .

. . . .

الكلمات كمثل السّماء

اليـــوم ،

شيء ما يتجمّع ، يتبدّد .

الكلمات كمثل السّماء ،

لا نهائية

لكن كلُّها فجأةً في حفرة الماء ، الصّغيرة .

إيف بونفوا

Yves Bonnefoy

— ولد في ٢٤ حزيران ١٩٢٣ ، في تور Tours بفرنسا .

— أكمل دراسته الثانوية في تور ، ودرس الرّياضيات والفلسفة في بواتييه Poitiers وباريس .

— يعيش في باريس منذ ١٩٤٤ . قام برحلات متعدّدة ، خصوصاً في بلدان البحر المتوسّط وأميركا .

— درّس في عددٍ من الجامعات . وهو ، منذ ١٩٨١ ، أستاذ في الكوليج دو فرانس ، باريس .

أهمّ أعماله المنشورة

I — شعر :

قولٌ في عازف البيانو ،	١٩٤٦
دوڤ ، حركةً وثباتاً ،	١٩٥٣
سائدةً أمسِ الصحراء ،	١٩٥٨
ضدّ أفلاطون ،	١٩٦٢
حجر مكتوب ،	١٩٦٥
المحاكمة ،	١٩٧٥

في خديعة العتبة ،	١٩٧٥
شارع ترافيسيار ،	١٩٧٧
ثلاث ملاحظات عن اللون ،	١٩٧٧
قصائد ،	١٩٧٨

II — دراسات :

التّصوير الجداري في فرنسا الغوطيّة ،	١٩٥٤
اللاّ مُحتَمل ،	١٩٥٩
البساطة الثانية ،	١٩٦١
آرثور رامبو ،	١٩٦١
حلم في مانتو ،	١٩٦٧
روما ١٦٣٠ : أفق الباروقيّة الأولى ،	١٩٧٠
داخلَ البلاد	١٩٧٢
الغيمة الحمراء ،	١٩٧٧
أحاديث عن الشعر ،	١٩٨١

III — ترجمات لأعمال شكسبير :

هنري الرابع ، يوليوس قيصر ، هاملت ، حكاية الشتاء ، فينوس وأدونيس ، اغتصاب لوكريس ١٩٥٧ — ١٩٦٠ ؛ الملك لير ، ١٩٦٥ ؛ روميو وجولييت ، ١٩٦٨ .

الفهرس



٣٠٠٠ ط ١ / ٨ / ١٩٨٦

YVES BONNEFOY

POEMES

Du mouvement et de l'immobilité
de Douve

Hier régnant désert

Pierre écrite

Dans le leurre du seuil



MERCVRE DE FRANCE
MCMLXXVIII

الطبع وفرز الالوان مطابع وزارة الثقافة
دمشق - ١٩٨٦

سعر النسخة
٢٨ ل س ٠ ل